

الْظَّنْ بِاللَّهِ
حُسْنٌ

إِيادٌ قَنِيبِيٌّ

مُفَرِّجَة

كيف يمكنك - أنت - أن تقلب المحنـة إلى منحة؟

كيف تستمتع بنعمـة البلاء؟

كيف يمكنك أن تعيش بسعادة مهما كانت الظروف؟

كيف يمكنك التعامل مع الأمور - أيًّا كانت - بإيجابية واستبشار؟

كيف تعلق قلبك بالله - عزوجل - فلا تخاف سواه ولا ترجو سواه؟

كيف تمتلك عزيمة لا تنكسر، وروحًا لا تُقهر؟

كيف تُطهّر قلبك من العتب على القدر؛ فيصير قلبك قلباً سليماً
تحب أن تلقى الله عزوجل به؟

كيف تحب ربـك - سبحانه وتعالـي - حبًّا غير مشروط لا يتأثر
بالظروف؟

الإجابات عن هذه الأسئلة - والكثير غيرها - ستتجـدـها في هذا
الكتـاب..

الله سبحانه وتعالى.. خالقنا ورازقنا وحبيبنا، وسعت رحمته كل شيء.

خلق عباده ليعبدوه - ليطيعوه ويحبوه.

خلقهم وتودد إليهم بالعطايا والنعم.. فهو الودود سبحانه..

خلقهم وعّمهم برحمته فهو الرحيم..

خلقهم فلطف بهم وحلم عنهم على الرغم من أخطائهم.. فهو اللطيف الحليم..

يحب أن يسمع صوت عبد المؤمن بالشكري في السراء، والتضرع في الضراء.. فإن غفل العبد عن ربه ابتلاه.. ليردده إليه فيسمع تضرعه ودعاهه وبكاءه..

وهو في ابتلائه رحيم حكيم.

مررت بظروف صعبة.. لكن الله وفقني إلى إحسان الطن به تعالى وبحكمته ورحمته. فكان الله تعالى عند ظني وحول نار البلاء برداً وسلاماً. كيف لا وهو تعالى القائل في الحديث القدسي: ((أنا عند ظن عبدي بي)) (رواه البخاري)..

واي والله، عندما تظن بربك خيراً وتعمل عملاً من هذا ظنه..
ترى منه الخير كله.

إذا أيقنت أن الله تعالى قادر على أن يقذف في قلبك السعادة والرضا والطمأنينة مهما كانت الظروف فإنه تعالى سيكون عند ظنك به .. فهو وحده القادر على إسعاد الإنسان وإشقاءه، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: 43].

نعم، أنعم الله عزوجل علي من خلال البلاء بنعم كثيرة جداً. كنت أكتب هذه المنح التي أكتشفها على ورقة على شكل نقاط.. كم كنت أستمتع وأنا أكتبها ثم أراجعها وأتأملها! وبعدما فرج الله عني اكتشفت هدايا عظيمة غيرها.

فوجدت من العرفان والامتنان لرب الرحمن أن أحدث إخواني وأخواتي عن شيء من هذه النعم الكثيرة، حتى تتعلم معًا فنًّا (إحسان الظن بالله عزوجل) ..

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدَّثْ﴾ [الضحى: 11]. وكل ما ستجدونه في هذا الكتاب هو بسطٌ لبعض نقاط فقط من النقاط الكثيرة التي أحصيتها.

إخواني وأخواتي، انظروا إلى حسن ظن أهل الكهف بربهم عندما قالوا: ﴿وَإِذَا أَعْتَزَلُوكُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأُولَئِكُمْ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: 16] ..

(الكهف).. مكان مظلم موحش بعيد طريقه وعراة فيه الحشرات وربما العقارب والحيات.. لا ماء ولا خضراء.. لكن قدرة الله تعالى تقلبه شيئاً آخر: ﴿فَأُوْرِأْ إِلَى الْكَهْفِ يَنْسُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَمِّي لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: 16].. حول الله عز وجل - بقدرته ورحمته - الكهف مكاناً للأنس والرفق والرحمة واليسر.

يا إخوتي.. والله إن ربكم تعالى كريم.. كريم.. فتعالوا نتعرف على ربنا من خلال أفعاله بعباده لنرى عظمة الرب الذي نعبد.. تعالوا نتعرف على الله تعالى لنحسن الظن به مهما قدر علينا و فعل بنا.. ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكُرُّهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ حَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19]

تعالوا نأنس بالله ونأوي إلى كنفه ونجبي قلوبنا ونعطي مجالسنا بذكره.

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفعني وإياكم بهذا الكتاب ويزيد به حبنا له سبحانه.

كيف نتخلص من الخوف من المجهول؟

تصور معي : أنه جاءتك هدايا، وأنت تعرف أنها هدايا عظيمة قيمة، لكن بعض هذه الهدايا جاء في غلاف جميل وبراق، والبعض الآخر جاء في غلاف قبيح، هل يهمك كثيراً شكل الأغلفة إذا علمت أن الهدايا التي في الداخل هدايا ثمينة وقيمة وعظيمة ؟

كذلك إذا علمت أن كل ما سيحصل في المستقبل بمقدورك أن تجعله مصلحتك، فلن يهمك كثيراً أن يكون في غلاف محنّة أو في غلاف منحة، فأنت من يقرر ما سيكون عليه .

لماذا يخاف الناس عادة ويقلقون ؟ لأن المستقبل مجهول بالنسبة لهم.

هذا الخوف ينبع على أهل الدنيا سعادتهم مهما كان عندهم من نعيم الدنيا لأنهم يخشون أن يزول هذا النعيم وتبدل الأحوال.

صاحب المال قد يفتقر.. صاحب الصحة قد يمرض مرضاً مزمناً.. الطلاق قد يُحبس.. الآمن قد يُروع.. المحب لإنسان حباً شديداً قد يموت حبيبه.

إذن.. أتريد أن تعرف كيف تتخلص من الخوف من مجهول
المستقبل؟

بساطة: اتخاذ قراراً بالرضا عن فعل الله سبحانه بك مهما كان.

لاحظ: الرضا يقع بعد الحدث، وهو نتاج أشياء تفعلها قبل
الحدث فيأتيك الرضا في وقت حاجته.. لذلك كثيراً ما يُطرح
التساؤل: (الرضا من أفعال القلوب التي لا يملك الإنسان إيقاعها،
ومع ذلك فهو مطلوب منه.. كيف؟!).

والجواب أن الذي تستطيعه هو توطين نفسك على الرضا،
والعمل بطاعة الله بحيث يرزقك الرضا عند حاجتك إليه.

كلما جاءك هاجس الخوف من المجهول جدد العهد والوعد بأن
ترضى وتكون شاكراً صابراً.. وثيق في معونة الله لك.

إذا فعلت ذلك فلن تخاف من المستقبل لأنك ما عاد مجهولاً،
بل أصبح صفحة مكشوفة لك! كيف؟ ببساطة، أنت الآن بعد
اتخاذ هذا القرار فإنك على يقين بأن كل ما يحصل هو لخيرك. ألم
يقل النبي صلى الله عليه وسلم:

(عَجِبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلِيَسَ ذَلِكَ لَأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ،
إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ
خَيْرًا لَهُ) (رواه مسلم).

إذن فبعد أن تتخذ قراراً بالشکر في السراء والصبر في الضراء
لا تقل: (لا أدرى إن كان المستقبل يحمل لي خيراً أم شراً). فِيَنْحَضُ
كلام النبي صلى الله عليه وسلم المستقبل لا يحمل لك في هذه
الحالة إلا خيراً.

الجميل في الأمر هنا أن المسألة لم تعد في حسْكَ أقداراً مجهولة
تتقاذفك في وديان الضياع..

لم يعد مهِمّاً ظواهر الأمور: فقر أم غنى، صحة أم مرض، بقاء
الأحباب أم وفاتهم..

أنت! أنت من سيجعل هذا كله يُؤول إلى مصلحتك وخيرك بإذن
الله.. ما عليك إلا اتخاذ قرار الشکر والصبر.

لا تقل (حتى لو اتخذت قراراً بالرضا والصبر، قد يُقدّر الله علىَّ
ألا أصبر)، بل تذكر أن الله سبحانه قال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ يُكْلِ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ [التغابن: 11].. هذه الآية تحمل معانٍ عظيمة، منها أن الذي يُسلِّم
أمره لله سبحانه مؤمناً به حقاً فإن الله تعالى سيهدي قلبه ويثبته
ويعينه. فالرضا والصبر آثار لامتلاء القلب بالإيمان بالله تعالى
والتسليم له.

أيضاً يعالج لك هذا الخوف رسول الله صلى الله عليه وسلم
الذي قال: (وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبَّرْ اللَّهُ) (رواه مسلم).

إذن بادرأنت واتخذ القرار ولا تقل قد يُقدر الله علي بعد ذلك
ألا أصبر. فالله أحلم من ذلك وأرحم. وقد جعل سبحانه للصبر عدداً
وأسباباً من لازمها أمده ريه بالصبر والسكينة والطمأنينة،
فبِعَمَلِكَ تستمد التصبير من الله، وليس هذا خارجاً عن مقدورك.

قد تقول: (أحاول أن أتخاذ القرار بالرضا، لكنني أحس بعدم
الصدق في ذلك لأنني أخاف أن يكون البلاء شديداً لا يمكنني
تحمله). سنتعاون على التخلص من هذا الخوف أيضاً عندما
نتأمل شيئاً من حكمته وإعانته في صفحات قادمة بإذن الله.

قد تقول: أنا الآن أستطيع اتخاذ القرار لأنني أحب الله تعالى.
لكن إذا ابتلاني ابتلاءً عظيماً فأشعرني أن تتأثر هذه المحبة..
سنتعاون أيضاً إن شاء الله على إعادة بناء محبتنا لله تعالى على
أسس سليمة كي نطمئن إلى معيته ومعونته مهما كانت الظروف.

المطلوب منك الآن أن تثق وتؤمن وتتوقن بحكمة الله ورحمته،
فتتخذ القرار بالرضا، والمقصود بالرضا: الرضا الكامل التام الذي
لا تشوبه شائبة، المنافي للتسخط على الله سبحانه والاعتراض
على حكمته وأفعاله، وليس المقصود هنا عدم التأثر بما يقع عليك
من مكره أو محبة ذلك المكره. فهذا منافٍ لفطرة الإنسان، فمن
ابتلي بموت عزيز عليه فمن الطبيعي أن يحزن ويتألم، ولكنه

لا يتسرّط على القدر ويُعترض على ربه سبحانه بمثل (لماذا أبتلى أنا) و(ماذا فعلت حتى يقع لي ذلك)، على سبيل الاعتراض! بل يحمد ربّه سبحانه ويسير، فينال الأجر والثواب مع لذة الرضا والطمأنينة.. وقد كان من أدعية النبي صلّى الله عليه وسلم: (**وأسألك الرضا بعد القضاء**) (روايه النسائي وصححه الألباني).

المطلوب منك عندما تضع رأسك لتنام وتقول الدعاء الذي علّمنا إياه نبينا: ((اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك)). أن تقولها بيقين مطلق وتسليم تام، لتكون مشمولاً بالخطاب الذي وجهه الرحمن الرحيم إلى نبيه حيث قال: **﴿وَاصْبِرْ لِحَكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ بِأَعْيُنَنَا﴾** [الطور: 48]. أي: لا تخاف، أنت في حفظنا ورعايتنا يكتنفك حلمنا ولطفنا.

خلاصة هذه المدحطة:

اتخذ قراراً بالرضا عن ربّك في كل أمر،
لتتخلص من الخوف من المجهول إلى الأبد بإذن الله.

حين تعلم أن الله يريد بك خيراً!

والله يا إخواني لا أظن أن هناك شعوراً أجمل من هذا تعيش به في حياتك ! الشعور بأن الله يريد بك خيراً مهما قدر عليك و فعل بك .. فكله مصلحتك .. وقد لا تستيقن من هذا الشعور إلا من خلل البلايا !

وأنت في عافية من أمرك غير مبتلى ، تعيش حياة شبه كاملة .. قد ينعم الله عليك بالنعم الدنيوية كلها .. فتسأل نفسك : (هل هذا من عاجل إنعام الله علي ، مع ما ادخلني من نعيم في الآخرة ؟ أم أنه استدراج ، يوفيني الله حسابي في الدنيا ويعاقبني في الآخرة على تقصيرني ؟) وقد يكون هذا الشك مقلقاً بالنسبة لك .

فإذا ابْتُلِيَتَ ورأيْتَ علاماتَ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بَكَ فِي هَذَا الْبَلَاءِ خَيْرًا، مَلَائِكَةُ الْبَهْجَةِ وَقَلْتَ لِنَفْسِكَ: (لَقَدْ قَصَرْتُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى لَكُنَّهُ الْحَلِيمُ.. يَعْامِلُنِي بِحَلْمِهِ وَكَرْمِهِ لَا بِمَا أَسْتَحْقَهُ). أَرَادَ بِي خَيْرًا لَا لَأْنِي أَسْتَحْقَ مِنْهُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَلَكِنْ لَأْنَهُ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ وَاللَّطْفِ وَالْحَلْمِ وَالرَّحْمَةِ وَالْكَرْمِ).

لكن السؤال الذي يطرح نفسه :

كيف أعرف إن كان الله يريد بي خيراً أم لا؟
هل يا ترى بكمال الصحة وكثرة المال والأمن من المصائب
الدينية؟

لا.. أبداً! هذا كله ليس دليلاً على إكرام الله لك ولا على أنه أراد بك خيراً. قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا الْإِنْسَنُ إِذَا مَا أَبْتَلَهُ رَبُّهُ وَفَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: 15، 16].. يعني كثير من الناس يعتبر أن إعطاء الله له من نعم الدنيا دليل على محبة الله له ورضاه عنه وأن له كرامة عند الله. بينما إذا ابتلاه بالفقر يعتبر ذلك دلالة على إهانة الله له وأن الله أراد به شراً. إذن يعتبر الإعطاء والمنع من نعيم الدنيا مقاييس رضا الله وسخطه على العبد، محبته وكراهيته للعبد.. إرادته الخير أو الشر بالعبد. فجاء الرد من الله تعالى على هذه النظرة بكلمة: ﴿كُلَّا﴾ [الفجر: 17].. أي ليس العطاء والمنع من الدنيا هو المقياس.

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ وَفِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾ [الإسراء: 18].. ﴿كُلَا نُنْهِي﴾.. المؤمنين والكافرين، الأبرار والفحار.. الكل ينال

نصيبه من عطاء ربك في الدنيا.. «وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٦﴾» [الإسراء: 20].

إذن ما هو المقياس لتعرف إن كان الله يريد بك خيراً؟
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وَإِنَّ اللَّهَ يَعْطِي الدُّنْيَا مِنْ يَحْبُّ وَمَنْ لَا يَحْبُّ، وَلَا يَعْطِي الإِيمَانَ إِلَّا مَنْ لَأْحَبَّ)) ..

نعم! إذن الإيمان هو المقياس ..

فإن وجدت البلاء قد قررك إلى الله، فاعلم أنه سبحانه أراد
بك خيراً.. وإن وجدت البلاء أبعده عنك سبحانه فالحذر الحذر!
تدارك نفسك قبل أن تكون من المحظوظين.

إذا وجدت نفسك تُبتلى بما لم يكن في حسابك، ومع ذلك
يُنزل الله عليك السكينة.. فقد أراد بك خيراً.
إذا وفقك الله لإحسان الظن به، وعصمتك من العتب على أقداره..
فقد أراد بك خيراً.
إذا مررت بك لحظات في بلائق تعيش فيها مع القرآن بسعادة
رغم كل شيء وتدمج عيناك من محبة الله والامتنان له.. فقد أراد
بك خيراً.

إذا صَغَرْتُ في عينك تهديدات المخلوقين وعلمت أنهم عبيد مقهورون تحت سلطان الجبار القهار سبحانه، فلم تعد ترجو خيراً إلا منه تعالى ولا تخاف إلا منه تعالى.. فهذا كله دلالة على أن الله تعالى أراد بك خيراً.

إذا وفتك الله إلى أن تستغل وقتك في بلائك فيما ينفعك في دينك ويقربك من ربك، بينما كثير من الناس يظهرون أحراضاً معافيين، إلا أنهم محبوسون في أهوائهم وأوهامهم وشهواتهم وشكوكهم ومرضى بها!.. فإنه تعالى ما اختارك من بينهم لخدمة دينه إلا لأنك أراد بك خيراً.

إذا سَبَحَتْ روحك في ملکوت الله وطافت تحت العرش مع أن جسمك وراء القضبان أو أثقله مرض.. فإنه تعالى ما تركها تخلق وتتحرر إلا لأنه أراد بك خيراً.

فالسكينة، والرضا والصبر والامتنان لله والعرفان له بالجميل وتعلق القلب به وعدم الخوف والرجاء إلا منه والأنس به وخدمة دينه.. هذه كلها من معالم الإيمان.. لا يعطيها تعالى إلا من أحب.. فإن أعطاك إياها فاعلم أنه أراد بك خيراً.
فهل من العقول أنه يبتليك ويرضيك لأنك يريد بك شراً؟! لا والله!
بل ما صدرك ورضاك بالقدر إلا لأنه يريد بك خيراً..

أني، أختي.. أنت من تختار لنفسك: إن كنت عندما تبتلى تنشغل بطاعة الله ولا تنطق شفتاك إلا بحمده والرضا عن قضائه

فالله قد أراد بك خيراً.. وحينئذ ستحقق السلام الداخلي مع نفسك، والسلام مع الله تعالى.

وإن كنت -لا قدر الله- تسخط أو تعتب على القدر أو تشغل بالاحزان والمخاوف والتوجس من المستقبل والتشكك في حكمة الله والعياذ بالله .. فقد اخترت الطريق الخطأ. قال ابن القيم: (من أراد من العمال أن يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه من العمل، وبأي شغل يشغله).

وأنت كذلك.. انظر بماذا يشغلك الله وفي أي عمل يستعملك لتعرف قدرك عنده وإن كان قد أراد بك خيراً أم لا. فإن رأيت من نفسك ما لا يسر فسارع إلى التوبة.. فإن وفقت إليها فاعلم أن الله قد أراد بك خيراً.



ما أجمل أن تعيش بشعور أن الله يحبك !
حين تتخذ القرار بالرضا، ستلمس أن الله تعالى يحبك، لأنك سبحانه كما في الحديث الذي ذكرناه: ((لا يعطي الإيمان إلا من أحب)). فالرضا إيمان، إن حُزْته فإن هذا من علامات محبة الله لك.

انظر حينئذٍ كيف ستنظر بإيجابية إلى ما يقضيه الله تعالى لك .. فالذي يقضي هذه الأمور حلوها ومُرّها هو حبيبك الذي يحبك: الله سبحانه وتعالى.

فإن قضى لك بالمرض فإنما يأتيك هذا القضاء من يحبك، ولا تعارض.. وإن قضى لك بوفاة عزيزٍ عليك فإنما يأتيك هذا القضاء من يحبك كذلك.

لكن العبد المؤمن لا بد له من الخوف مع الرجاء.. فكيف يطمئنُ إلى أن هذه البلایا ليست علامات مقتٍ من الله؟

إنَّ ردة فعلك عند البلاء هي التي تحدد: فإن أقبلت على الله سبحانه ورضيت وصبرت، فإنك تستديم هذه المحبة التي ظهرت لك أماراتها من قبلٍ وتزداد بها ثوقاً. ويكون حرصك على استدامتها والأنس بطمأنينتها معيناً لك على هذا الصبر والرضا. لكن إن بادرتها بالتسخط فلاتنال إلا السخط! فاجعل خوفك من تضييع الود الذي بينك وبين الله، والوقوع من ثمَّ في الوحشة.. اجعل خوفك هذا حاجزاً لك عن السخط.



في إحدى زيارات شقيقتي لي في السجن قالت لي أنها لمست في الزيارة السابقة مني فتوراً وحزناً. فقالت لي أريدك أن تكون قوياً كما عودتنا وألا تفتر أو تخاف. فرددت عليها بقصيدة بعنوان (من المسجون؟!) أجسد فيها بعض المعاني السابقة:

جاءتني أختي في سجني تَزدَانُ ثِبَاتًا وَوَقَارًا
 قالت قد جئتكم ناصحةً لَأَزِيدَ بِعَزْمِكَ إِصْرَارًا
 إِيَّاكَ فَلَا تَيَأسْ مَلَلًا وَاصْبِرْ وَامْتَلِئَ اسْتِبْشَارًا
 لَنْ ترْقَى فِي درجاتِ الْمَجَدِ إِذَا لم تلْعَقْ صَبَارًا
 أَخْيَاهُ لَا تَخْشَى شِيئًا فَشَقِيقُكَ يَعْرُفُ مَا اخْتَارًا
 لا بَدْ لِمَنْ قَدْ حَمَلَ الدُّعْوَةَ أَنْ يَتَحْمِلَ أَضْرَارًا
 مَا كَانَ اللَّهُ لِيَتْرُكَنَا حَتَّى تَمَيَّزَ أَبْرَارًا
 وَيَسِّرْ إِلَى دركَاتِ جَهَنَّمَ مِنْ قَدْنَافَقْ وَتَمَارِي



إِنْ كُنْتُ لَفِي عَيْشٍ رَغَدٍ لَا أَخْشَى فِي هِيَهِ الْأَكْدَارَا
 مُمْتَلِئَ الْجَيْبِ كَثِيرَ الصَّحْبِ حُرَّاً أَتَنْقَلُ أَسْفَارًا
 وَرُزْقُتُ قُبْيلَ السِّجْنِ بِتَوْأَمَتَيْنِ اسْتَبَّتَا الْأَنْظَارَا
 وَإِذَا بِي لَا بُأْصِرْ حَوْلِي إِلَاقْضِي بَانَا وَجَدَارَا
 وَأَسْاقْ وَقِيدُ فِي رِجْلَائِي لَا لَقَقَ حَكْمًا جَوَارَا
 وَالْتَّهْمَةُ أَنِي قَدْسَاعَدْتُ رَفَاقَ الْمِلَّةِ إِيَّاهَا

إِنْ نَمْتُ حَلْمٌ بِأَطْفَالِي
وَذَكَرْتُ إِيَابِي وَالْدَارَا
لَقِيتِ شَقِيقَ الْخَوَارَا



لَكْنِي أَرْجُو مِنْ صَبْرِي
فِي قُرْبِ الرَّحْمَنِ جِوَارَا
وَلَا شَرَبَ كَأسًا مِنْ كَافِرْ
أَوْ عَسْلًا يَجْرِي أَنْهَارَا
وَالْأَلْبَى مَا قَدْ أَمْرَ رَبُّ عِبَادِهِ: كَوْنُوا أَنْصَارَا
مَسْجُونُ لَكْنِي فِي صَدْرِي
بِسْتَانُ يَرْخُرُ أَزْهَارَا
أَقْرَأْ وَأَدَوْنُ أَفْكَارَا
وَأَقْوَمُ أَصْلَى الْأَسْحَارَا
أَتَدَبَّرْ إِذْ أَتَ الْقُرْآنَ لَكِي أَكْتَشَفَ الْأَسْرَارَا
وَأَوْلَفُ فِي أَسْبَابِ الصَّبْرِ لِيُرْضِي النَّاسُ الْأَقْدَارَا
وَتُحَلِّقُ رُوحِي أَخْذَذَةً
مِنْ حُبِّ الرَّحْمَنِ مَدَارَا
أَتَزُودُ فِي سِجْنِي التَّقْوَى
وَعَدْوِي يَحْمِلُ أَوزَارَا



كَمْ مِنْ أَحْرَارِ أَبْصِرُهُمْ
كَمْ قَدْ دَرَجَوا أَنْ يَهِنُوا
قَدْ هَجَرُوا الدِّينَ اسْتَهْتَارَا
إِنْ غَضِيبًا لِيَسَ لِأَجْلِ اللَّهِ
وَلِنَارِ جَهَنَّمَ مَا اهْتَمُوا
بَدَلًا مِنْ كُرْتَةِ الْأَرْضِ قَفَوا

فَمَنِ الْمَسْجُونُ أَنَا أَمْ هُمْ
إِنْ زَدْنَا الْأَمْرَ اسْتَبْصَارًا



أَخْيَةٌ لَا تَخْشَى شَيْئًا فَشَقِيقٌ لَمْ يَفْعَلْ عَارِا
هَلْ عَارٌ أَنْ تَذْفَعَ إِنْ دُنْسَ عِرْضُ الْأَمْمَةِ وَنَغَارًا
لَمَّا أَسْرَرْنَا الْإِنْكَارًا وَخَشِينَا بَطْشًا وَإِسَارًا
لَمْ نُعْطِ النَّشْءَ بِأَمْتِنَا قُدُّوَاتٍ تَمْتَلِئُ فَخَارًا
فَاتَّخَذُوا رَمْزَ بَطْولَتِهِمْ مَنْ جَحَدَ اللَّهَ كَجِيفَارًا
أَيْلِيقٌ بَنَا أَتَبَاعَ مُحَمَّدًا أَنْ تَمَثَّلَ جِيفَارًا
مَنْ عَبَدَ اللَّهَ الْقَهَّارَ مَا كَانَ يُجَاهِي التَّيَارًا
مَنْ طَلَبَ الْعِزَّةَ عِنْدَ سَوَى الرَّحْمَنِ يُبَوِّهُ خَسَارًا
فَلِبَيْتَ عَنَاكِبَ قَدْ لَجَؤُوا بِدَمَارِيَرْجُونِ عَمَارًا



أَرَأَيْتَ لَتْ وَنْسَ إِذْ حَارَبَ
فَيُطَارِدُ كُلَّ مَحْجَبَةٍ
يَتَمَنَّى لَوْكَانَ بِأَسْفَلِ
وَلِرُبْعِ الْقَرْنِ يَوْالِيهِمْ
إِنْ دَخَلُوا جُحْرَ الضَّبِّ دَخْلَ
مُجْرِمَهَا الرَّحْمَنَ جِهَارًا*
مِنْ أَجْلِ اسْتِرْضَاءِ نَصَارَى
أَحْذِيَةُ الْكُفَّارِ غَبَارًا
يَرْجُو فِي الْحُكْمِ اسْتِقْرَارًا
يَتَمَلَّقُ ذُلَّا وَصَفَارًا



*كتبت القصيدة أول عام 2011 بعد أحداث تونس وفرار (زين العابدين بن علي) منها.

أَخْيَةُ لَا تَخْشَى شَيْئًا
فَأَخْوِلُكَ تَوَلَّى الْجَبَارًا
وَاللَّهُ يَدْافِعُ عَنِّي إِذْ
قَدْ وَعَدَ الْفُجَارَ بَارًا



خلاصة هذه المحطة:

اصبر في بلائك،
وأحسن الظن بربك وبحكمته ورحمته ..
فإن نجحت في ذلك فاعلم أن الله أراد بك خيراً.

لا تكن "حبشطياً" !

ما رأيك في الطائفة التالية:

إنها طائفة من أبناء المسلمين اسمها (الطائفة الحبشرطية)..

ماذا تقول هذه الطائفة عن الله -عز وجل- في قاموسها؟
تقول: "الله - سبحانه وتعالى - هو الذي فرض علينا الوجود في
هذه الحياة الدنيا، وفرض علينا واجبات، منعنا من محرمات،
وببيده إسعادنا وإشقاونا. ولكن نفوسنا تستثقل بعض الواجبات
وتهوى بعض المحرمات، لذا فإن علينا أن نتعامل مع الله بموازنة،
بحيث نفعل من الواجبات المقدار الذي يضمن استمرار نعم الله
عليها مع أقل قدر من الثقل في نفوسنا، ونفعل - أيضاً - من
المحرمات بالمقدار الذي يحقق رغباتنا لكن دون تعريضنا لقطع نعم
الله أو نزول عقابه".

ترى، هل تعرف الطائفة الحبشرطية لعلاقة الإنسان بربه
تعريف سليم؟

هل هكذا ينبغي أن يسلّم نفسه وعاطفته لله رب العالمين؟
هل عرفتم من هي الطائفة الحبشرطية؟
إنها في الواقع كثير من جموع العالم الإسلامي، لا يقولون ذلك
بألسنتهم، لكن لسان الحال أبلغ من لسان المقال!

بل لعلك -وأنت تقرأ هذه الكلمات- ستجد نفسك منتبًا
ضمنياً إلى هذه الطائفة!

إن هناك صفاتٍ في نفوسنا تبدو خطورتها عندما نشخصها
ونعبر عنها بعبارات لا مجاملة ولا مداهنة فيها.. قد
نستنكرها ونستغريها لكن الحقيقة المرة أنها موجودة في نفوسنا
وبدرجات متباعدة. لذا، دعونا نتعمق في تحليل النفسية
البشرطية؛ لترى إن كانت مختبئة في ثنايانا، ولأية درجة؟

إن البشري يتداكى ويجري التجارب في تعامله مع ربه
سبحانه وتعالى!.. يحاول أن يصل إلى "نقطة الموازنة" التي يشبع
فيها رغباته دون أن تقطع عنه النعم الدنيوية.

إذا ضم إلى حياته وأدخل في "مكتسباته" معصية وأمراً مما
حرم الله، فإنه يتربّض: فإن استمرت نعم الله ولم ينزل العقاب فإنه
يستنتاج أنه ما زال ضمن نقطة الموازنة، ويعتبر هذا المحرم أحد
المكتسبات! أشبع رغبته دون قطع النعمة.

وأما إذا أدت هذه المعصية إلى قطع نعمة من النعم أو نزول
عقاب، فإنه يستنتاج أنه قد تجاوز نقطة الموازنة، فيعود أدراجه
ليتخلص من المحرم، ويعلن حالة الاستنفار القصوى: دعاء، بكاء،
تضرع، اجتهاد، طاعات.. لماذا؟

لأنه يريد عودة النعم ودفع النقم.

﴿وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَنَ الْضُّرُّ دَعَا نَجْنِبَهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
 عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَ كَأْنَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَهُ وَ﴾ [يونس: 12] .. إذن: دعانا
 لجنبه أو قاعداً أو قائماً.. دعاء من يريد عودة النعم.. ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا
 عَلَى إِلْأَنْسَنِ أَغْرَضَ وَنَكَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَهُ الْشُّرُّ فَدُوْ دُعَاء عَرِيضٍ ﴾
 [فصلت: 51] .. ذودعاء عريض.. دعاء من يريد عودة النعم.

والمصيبة أن نفسية البشرطي "تبرمج" مع مرور الزمن على هذه "الموازنة" بحيث يستقر في حسه أن النعم التي هو فيها من "حَقّه" وأنه أهل لها: ﴿وَلَيْنَ أَذْفَنْهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ
 لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: 50] .. يعني أنا أستحق هذه الرحمة، أستحق هذه النعم.

وفقاً لهذه "الموازنة" فإن البشرطي يحب الله تعالى طالما أنه يمكن استمرار نعمه ودفع نقمته -في نظره- بهذه "الموازنة" والمد والجزر، لذلك سميـناه (البشرطي) أي: أنه يحب الله -عز وجل- حباً مشروطاً، مشروطاً باستمرار النعم، مشروطاً باستمرار المصالح الدنيوية خاصة؛ فإن نفسية البشرطي قلما تتذكر الآخرة!

تصور معي الآن ماذا يحصل إن أذنب البشرطي ذنباً فابتلاه الله تعالى بما يكره، فتخلاص البشرطي من هذا الذنب كالعادة

وأعلن حالة الاستنفار القصوى: تضرُّع، دعاء، استغفار، طاعات..
لكن الله عزوجل شاء أن يستمر البلاء ويشتد.
سوف يعتمل في نفسيةالبُشريِّي تساؤل: (لقد أديت ما علىيَّ أن
أفعله، فلماذا لم يفعل الله تعالى المتوقع منه؟)

وفقاً لعادة "الموازنة" التي تكرست في نفسيةالبُشريِّي فإن
من "حقه" عندما يتخلص من المعصية ويجهد في الطاعات أن
يرفع البلاء ويعود "المصروف"اليومي الذي يأخذه من الله -عز
وجل-. فإذا حصل خلاف المتوقع فإن محبته المشروطة لله -عز
وجل- سوف تنها! ولا عجب أن تنها لأنها أُسست على شفاعة
جرفِ هارٍ، وابنت على فهم متشوه لعلاقة الإنسان بربه سبحانه
وتعالى.

إذاً على أي شيء نبني حبنا لله عزوجل حتى لا ينهار هذا الحب
في أية لحظة من لحظات حياتنا؟
هذا ما سوف نعرفه في المحطة القادمة بإذن الله.

خلاصة هذه المحطة:

انظر في نفسك إن كنت جبُشريطياً
شرط محبتك لله باستمرار النعم الدنيوية.

ابن حبّه لِلَّهِ عَلَى أَسْسٍ سَلِيمَةٍ

ذكرنا في المخطة السابقة أن (الحبشطى) يشرط محبته لله
عزوّجل باستمرار النعم الدنيوية.

إذن؛ هو يؤسس هذا البيت -يعنى (محبة الله)- يؤسسه على
أسس.. هذه الأسس هي: المال، الصحة، الحرية، الاستقرار
الأسرى، المكانة الاجتماعية.

لكن، لاحظ معى:

هذه الأسس الدنيوية جميعها.. أليست قابلة للزوال؟
أليس هذا (الحبشطى) مهدداً في أي لحظة:

بالفقر = زوال المال

بالمرض = زوال الصحة

بالحبس = زوال الحرية

بالمشاكل = زوال الاستقرار

ماذا سيحصل حينئذٍ إذا ابتلى بفقد أحد هذه الأسس؟
سوف يميل البيت ويسقط وينهار.

سوف تنهار محبة الله المشروطة في قلب هذا العبد الحبشطى!
لأنه أسسها على أسس قابلة للزوال في أية لحظة.
إذن؛ كيف أعرف إن كانت محبتي لله عزوّجل مهددة بالزوال في أية
لحظة؟

كيف أعرف إن كنت قد أؤسستها على أساس دنيوية؟
حقيقةً، البلاءُ يساعدك في ذلك جدًا، وهذه من نعم الله عليك في
البلاء.

عندما تُبَتلى وتدعوا الله عز وجل وتطلب منه أن يرفع عنك البلاء
ويعيد لك النعم، قد يقدر الله عليك أن يستمر بلاؤك ويطول
ويشتد، وحينئذٍ سوف تعرف إن كان حبك لله مشرووطاً بهذه
المصالح الدينية.

واجهت محنَّةً حُرِّمْتُ فيها فجأةً من: حريري، أهلي، أولادي،
أصدقاءٍ، مالي، وظيفتي.. فجأةً!
ثم دعوت الله لكنه قدر أنه يستمر بلاي أطول مما ظننت.
هذا وضعني حقيقةً أمام السؤال المهم:
الآن، وبعد حرماني من هذه الأشياء، هل ما زلت أحب الله عز جل؟
هذا السؤال ساعدني في تشخيص مقدار (الحب الشرطية) في نفسي؛
لأعيده بناءً محبة الله على الأساس السليم الصالحة.
أسألك بالله: هل أنت مستعد أن تشتري بيتك لتسكنه إذا علمت أن
هذا البيت مرتكز على أساس واهية قابلة للانهيار والزوال في أية
لحظة؟

فما ظنك بمحبة الله عز وجل التي من أجلها نعيش، بل من أجلها
خلقنا؟
فرَبِّينا خلقنا لنبعده، والعبادة محبة وتعظيم وطاعة.

فهل أنت مستعد أن تغامر بمحبة الله عز وجل، وتبنيها على أساس
قابلة للزوال في أية لحظة؟
إذاً، لابد لك أن تبني محبة الله في قلبك على أساس صحيحه.
ترى، ما هي هذه الأساس؟
كثيرة.. منها:

1. اليقين باستحقاق الله سبحانه للعبادة لذاته العظيمة، والتفكير في أسماء الله وصفاته وتأمل آثارها في الواقع. وهذا هو الأساس الأعظم في بناء المحبة لله.
2. تعلق القلب بالآخرة ونعمتها.
3. العرفان لله بنعمة الهدایة.
4. الامتنان لله بما أنعم عليك في الماضي بغض النظر عن الحاضر والمستقبل.
5. استحضار أن نعم الله عليك لا تعد ولا تحصى مهما نزل بك من بلاء ومصيبة ومهما فقدت، فلا زلت مغموراً في فضله لكنك ألْفَتَ نعمه التي أنت فيها الآن حتى لم تعد تحس بها.
6. تأمل محطات رحمة الله بك، صرفه للشّرور عنك، تهيئه أسباب هدايتك، ستره عليك، إحاطته إياك بأناسٍ يحبونك وكل ما كان منهم من خيرٍ فمن الله.. تأمل ذلك في محطات حياتك..

- أنا عن نفسي استعرضتها تباعاً في جوف بلاء، وتلؤتُ معها سورة (والضحى)، فأحدثت لي لذة وطمأنينة وشعوراً بمعية الله لي وأنه سبحانه يريد بي خيراً.

7. ما ينعم الله به عليك، إن أقبلت عليه، من أعمال القلوب مهما كانت الظروف، كالرضا والشوق إلى الله والأنس بالله وكلامه (القرآن).

وستتكلّم يا ذن الله عن بعض من هذه الأسس في محطاتٍ قادمة.

إذاً، هذه أشياء ثابتة لا تزول: أسماء الله وصفاته، الآخرة المرقبة، نعم الماضي، حقيقة أنك ستبقى مغموراً في نعم الله مهما أخذ منك.. هذه أشياء لا تتغير، ليست مهددة بالزوال.. تبني عليها محبتك لله وأنت واثق مطمئن.

أما ما يستجُدُ لك -في الحاضر والمستقبل- من نعم جديدةٍ ورفع بلاء؛ فهذه كلها تزيد محبتك لله عز وجل، ولكنها ليست شرطاً في وجود هذه المحبة.

قد يقال: لكن الله عز وجل شَرَعَ تألف قلوب الناس بإعطائهم شيئاً من نعيم الدنيا. فمعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي قسماً كبيراً من الغنائم للمؤلفة قلوبهم، لکفارٍ يريد رسول الله أن يستميلهم للإسلام، بل إن مصرفًا من مصارف الزكاة هو (المؤلفة قلوبهم)؟

صحيح.. لكن هذا التألف لقلوب الناس بنعيم دنيوي هو مرحلٍ
مؤقت؛ حتى ينهاي الحاجز النفسي بين قلب الغافل والإسلام، حتى
تُزال الغشاوة عن بصره ليرى حقيقة الدين فتخالط بشاشة
الإيمان قلبه، فلا يعود يأبه -من ثم- أعني أو منع.

في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أنس قال: (إِنَّ كَانَ الرَّجُلُ
لِيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا، فَمَا يُسْلِمُ حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ
مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا).

(إِنَّ كَانَ الرَّجُلُ لِيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنْيَا): يعني بشرطٍ صرفٍ!
وإنما يُظهر الإسلام لإرادته الدنيا..

(فَمَا يُسْلِمُ): يعني فَمَا يَلْبَثُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَنْشَرَ
صَدْرُه بِحَقْيِيقَةِ الإِيمَانِ وَيَتَمَكَّنُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَكُونَ حِينَئِذٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ
مِنَ الدُّنْيَا.

إذن؛ تحول حبه لله إلى حبٍ حقيقيٍ مبني على أساسٍ سليمة.
أما أن يعيش الإنسان حياته كلها عيشة المؤلفة قلوبهم فهذا وضعٌ
خطير غير مقبول! لأن محبته لله مهددة بالزوال في آية لحظة.
عندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدى طوائف من
الناس، ما الذي حصل؟

المؤلفة قلوبهم من أهل مكة الذين تألفهم رسول الله، لكنهم بعد ذلك
بنوا محبتهم لله على أساسٍ صحيحٍ، كانوا هم أسوأ الإسلام
الذين نافحوا عنه أيام الردة، وبذلوا في ذلك أرواحهم ودماءهم
وأموالهم.

بينما ارتد من بقي (حبشطياً) متعلقاً بالدنيا عندما تعرض لفتنة وفاة النبي وتمرد الزعماء.

إنَّ استقرار هذا المفهوم في نفوسنا - (محبة الله غير المشروطة) - يمنحنا فهماً أعمق لكثير من حقائق ديننا.

فمثلاً: عندما نقرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوْمَهَا وَإِنْ قَلَ) قد يكون من أسباب ذلك:

أنَّ الطاعة الكثيرة المتقطعة كثيراً ما تكون مدافعةً لبلاء حل أو ابتهاجاً مؤقتاً بنعمة جديدة، خاصة إذا تبعها فتور شديد في الطاعة.

أما العمل المستمر من الطاعات فعادة ما يكون نابعاً من حب مستقر في القلب لا يتأثر بالحوادث السارة أو الحزينة. فإذا، أخي وأختي:

إذا وجدت في نفسك هذا الداء الخطير: (شرطية محبة الله)، فعليك أن تعرف به وتسعى لعلاجه؛ فهو أخطر من أية مصيبة دنيوية؛ لأنَّه مصيبة في الدين، وخللٌ فيما نعيش من أجله.

خلاصة هذه المحطة:

تخلص من مرض (الحبشطية)
وابن حبك لله على أساس سليمة لا تزول بالمتغيرات.

الله يتودد إلينا بالبلاء

لاحظ أبو غسان فتوراً في مشاعر ولديه الشابين تجاهه..
فغسان ورامي أصبحا يأتيان كل صباح إلى غرفة أبيهما ويمدان
يدهما قائلين : (المصروف يا أبي لو سمحت) بشكل روتيني رتيب ..
يعطيهما المصروف فيشكرانه على عجل وينطلقان من البيت.

أراد أبو غسان أن يذكر ولديه بأن علاقته بهما ليست علاقة
مصروف فحسب .. فعندما جاءا هذه المرة ومدا يديهما لقبض
المصروف، قال لهما أبوهما بلهجة تنبع بالحب الصادق:
(أحbkما يا ولديّ) . كان أبو غسان يتمى أن تلتقي عيناه بعيني
ولديه وهو يقول هذه الكلمات فيقرأ فيها البهجة والاعتزاز بما
قال لهم .. كان يريد أي مؤشر على أن ولديه يحبانه لذاته،
لامصروف الذي يأخذانه منه.

لكن تجاوب الولدين كان مخيّباً للأمال ! هزا رأسهما قائلين
في شرود ذهن: (ونحن كذلك)، أي نحن كذلك نحبك .. وبقيا ماديين
يديهما وأنظارهما مثبتة على جيب والدهما، وفيه المصروف !

صدم الأب وانقلبت ابتسامته ذبولاً وأخرج يده من جيبه دون
المحفظة .. انتبه الولدان لما حصل وأدركوا عدم لباقيهما

في التجاوب مع كلمات أبيهما الرقيقة.. قبضا يدهما وأنزلها..
حاولا تدارك الموقف..

أما رامي فقال : (أبي أنا آسف.. طبعاً أنا أحبك.. أنت أبي الذي
رعيتني وأنفقت على ولا غنى لي عنك).. كان رامي يقول هذه
الكلمات وذهنه في المصروف، يتوقع أن يمد والده يده في جيبه
ويعطيه المصروف.. لكن الأب لم يفعل وبقي صامتاً. فقال رامي :
(أبي، رجاءً أنا أحتاج المصروف.. أعدك أن أكون أكثر لباقةً
لكن لا تحرمني من المصروف). لم يتجاوب الأب فتضايق رامي
وخرج مغضباً من الغرفة.

وأما غسان، فقد هزَّ الموقف كيانه! هو يحب أباه بالفعل، لكن
قلبه كان قد دُهِل عن هذه المحبة بتعلقه بالمصروف في الفترة
الماضية. ملامح الأب الذابلة العابسة أيقظت مشاعر غسان،
فادرك كم كان مقصراً في حق أبيه في الفترة الأخيرة.. أدرك أنه كان
أنانياً لا يفكر كثيراً في شعور أبيه ولا يجتهد في إدخال البهجة إلى
قلبه.. اغزورقت عيناً غسان بدموع حارة وقال بصوت متهدج:
(آسف يا أبي الحبيب.. لقد غفلت عنك كثيراً! سامحني أرجوك..
الدنيا كلها لا تساوي ابتسامة منك).. قال هذه الكلمات وهو
يقلب عينيه الدامعتين في وجه أبيه باحثاً عن أية بادرة انفراج

لubooshe.. لكن الأب بقي عابسًا صامتًا وخرج من غرفته وجلس على الأريكة لا يتكلم.

لِحِقَّه غسان وتحرك حول أبيه كالقط، فتارةً يقبل يديه وتارةً يقبل رأسه وتارةً يمسك بيدي والده بين يديه ودموعه منهمرةً على خديه وهو يقول: (سامحني يا أبي أرجوك.. أنا أحبك.. تعلم أنني أحبك)..

تنافر الأب مشاعر متباعدة.. فهو لا يحب رؤية ولده كسيراً بهذا الشكل، لكنه ما زال مصدوماً من جفاء ولديه في أول الأمر، كما أنه يريد مزيداً من الضمانات لصدق محبة غسان.. انسحب الأب وعاد إلى غرفته بصمت وأغلق الباب وراءه.

أحس غسان بالضياع فلحقه وقال من وراء الباب منادياً: (أبي أرجوك.. لا أطيق الحياة دون رضاك.. لا أستطيع العيش وأنا أراك غضبان حزيناً.. لقد أخطأت يا أبي لكنني أحبك.. أحبك يا أبي.. أرجوك سامحني.. أرجوك ابتسم في وجهي.. أرجوك ضمني إلى صدرك).. وتعالى صوت بكاء غسان كطفل فزعٍ تركته أمه في صحراء وتولّت عنه.

حينئذ انها رسد الجفاء في قلب الأب أمام دموع غسان.. فتح الباب ورفع ولده الذي كان جاثياً على ركبتيه وضمّمه إلى صدره

وَجْعَلَ يَمْسَحُ دَمْوعَهُ وَيَقْبَلُ رَأْسَهُ.. اسْتَمِرْ بَكَاءً غَسَانٌ، لَكِنَّهُ الْآنَ
بَكَاءً فَرَحَةً وَحْنِينٌ أَشْبَعَ..

مَدَّ الْأَبَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ لِيُسْتَخْرُجَ مَصْرُوفَ غَسَانٍ، لَكِنَّ غَسَانَ
أَعْادَ الْمَحْفَظَةَ إِلَى جَيْبِ أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ وَهُوَ مُلْتَصِقٌ بِصَدْرِهِ (دُعَا)
الْآنَ مِنَ الْمَصْرُوفِ.. أَرِيدُكَ أَنْتَ يَا أَبِي الْحَبِيبِ.. مَا دَمْتَ رَاضِيًّا
عَنِي فَالْدُنْيَا كُلُّهَا تَهُونَ).

وَلَلَّهِ الْمُثْلُ الْأَعْلَى.. قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ عَبَادِهِ جَفَافًا فِي
مَحْبَتِهِمْ لَهُ، وَتَعْلِقًا بِنَعِيمِ الدُّنْيَا الَّذِي يَمْنَحُهُمْ إِيَاهُ.. هُوَ تَعَالَى
يَتَوَدَّدُ إِلَى عَبَادِهِ وَيَحِبُّ مِنْهُمْ أَنْ يَبَادِلُوهُ الْوُدُّ وَدًا.. فَإِذَا رَأَى مِنْهُمْ
جَفَاءً وَغَفَلَةً قَطَعَ عَنْهُمْ نِعْمَةً مِنَ النِّعَمِ لِيَهُزِّ كِيَانَهُمْ وَيَوْقَظُهُمْ مِنْ
غَفْلَتِهِمْ لَعْلَهُمْ يَنْتَبِهُونَ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّ النِّعْمَةَ أَلْهَتْهُمْ عَنِ النِّعَمِ..

أَمَا فَقِيرُ الْمَشَاعِرِ كَـ "رَامِي"ـ، فَلَا يَفْهَمُ هَذِهِ الْأَبْعَادَ، بَلْ لَا يَرَازِلُ
فِي غَفْلَتِهِ قَدْ سِيَطَرَ "الْمَصْرُوفُ" عَلَى تَفْكِيرِهِ.. فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
وَيَجْتَهُدُ فِي الطَّاعَاتِ لِيُسْتَرْجِعَ "الْمَصْرُوفَ". لَيْسَ مَصِيبَتِهِ فِي
عِتَابِ اللَّهِ لَهُ، إِنَّمَا مَصِيبَتِهِ قَطْعُ "الْمَصْرُوفِ"! بِلَادَةً فِي التَّفْكِيرِ
وَقَصْوَرِ الْنَّظَرَةِ وَفَقْرِ الْمَشَاعِرِ! لَا يَفْكِرُ إِلَّا فِيمَا يَأْخُذُهُ، وَلَا يَرِي
مِنْ وَاجِبِهِ أَنْ يَشْكُرَ وَيَبَادِلَ الْوُدُّ وَدًا.

وأما صاحب الحس المرهف والقلب الحي ك "غسان" ، فإن قطع "المصروف" يزيل عن عينيه الغشاوة ليبصر المصيبة الحقيقة، أنه قصر في حق الله تعالى وغفل عنه.. فكل ما يسيطر على كيانه هو كيف يسترضي الله تعالى ويبرهن له على أنه يبادله الود ودًا.. أما عودة "المصروف" فتصبح قضية ثانوية.. لأنه قد يعيش، ولو بصعوبة، دون المصروف، لكنه لا يطيق لحظة من الضياع الذي سيعلمه إن فقد معيّنة الله تعالى أو أحس بأن الله لا يحبه.

في النهاية، قد يعود "المصروف" للاثنين: ﴿كَلَّا تُمْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: 20] .. لكن الأول، فقير الشعور، سيخرج من البلاء كما دخل فيه لم يستفد شيئاً.. ما دام يرى عودة "المصروف" غاية الآمال ومتى الطموحات. وأما الثاني فإن المحنـة كانت أكبر منحة له، حيث أطلقت روحـه من قيد الغفلة لتدور في فلك محبـة الله تعالى.. ﴿هُلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: 24].

ورد عن الصالحين أن بعضهم كان يبتلى بمرض أو غيره وقد عرف عنه أنه مستجاب الدعوة، ومع ذلك لا يدعو الله تعالى بكشف البلاء.. ستقول: هذه المرويات فيها مبالغة. ربما نعم، ولكننا إذا فهمنا المعاني المذكورة هنا فلا نستبعد أن يحصل ذلك..

فلعل هذا المبتلى فهم البلاء على أنه تذكرة من الله تعالى بأنك قد غفلت عن خالقك، ويريد ربك منك أن تبادله التودد تودداً.. فيسيطر هذا التفكير على كيان المؤمن المبتلى ويعيد حساباته ليكتشف مواطن الغفلة ويُنْشِط معاني المحبة في قلبه ويتقن في البرهنة لربه على صدق محبته له سبحانه..

مثل هذا التفكير لا يبعد أن يشغل المؤمن عن الدعاء بكشف البلاء.. بل قد يرى إعطاء الأولوية للدعاء بكشف البلاء سوء أدب لأنه يدل على عدم اهتمام بالسبب الذي من أجله ابتلي (التذكرة بمبادلة التودد تودداً)، وأنه يعلم أن استمرار البلاء أدعى لرده إلى دائرة محبة الله .. فهو يشغل بإعمار قلبه بمعاني المحبة من جديد، ويكل أمر توقيت رفع البلاء إلى الله ويوقن بحكمته تعالى في ذلك ورحمته.

رأيت بعد ذلك لماذا (الله يتودد إلينا بالبلاء)؟ ألم تر أن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ). فانظر إلى الابتلاء بإيجابية، لا على أنه عقوبة محضة، بل هو بشكل من الأشكال تودد من الله ! رأى منا غفلة عنه وجفافا في عاطفتنا تجاهه، فابتلى لنراجع أنفسنا، فنستحي، فنحب، وتتودد.. لله رب العالمين.

إن لم تستوقفك هذه الآيات فجدد محبتك !

كم يتودد الله تعالى إلينا وهو الغني عنا! أليس من أسمائه (الودود)؟ انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذُكْرًا كَثِيرًا ﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّ عَلَيْكُمْ وَمَلَئِكُتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعْدَ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾﴾ [الأحزاب: 41-44].

الله تعالى يتودد في هذه الآيات إلى المؤمنين ويستجيب شاعرهم بتذكيرهم بأنه يهدىهم ويرحمهم ويسيقاهم يوم القيمة بأجر كريم يعبر عن محبته لهم. وكأنه يقول لهم: ما دمت أفعل ذلك كله لكم، ألا تستحقون منكم أن تحيوني فتذكريوني كثيراً كما يذكر المحب محبوبه.

لا ينبغي أن تكون علاقتنا بالله تعالى محصورة في انتظار النعيم الدنيوي، بل ولا الآخرة فحسب.. لابد أن يكون رضا الله مطلباً في ذاته. لا بد أن نحب الله ونحرض على أن يحبنا هو أيضاً سبحانه وتعالى، وألا نطيق الحياة دون هذه المحبة .

ألا ترى أن الله تعالى ختم كثيراً من آيات الأوامر ببيان أنه يحب من يفعل كذا وكذا ولا يحب من يفعل كذا وكذا ؟ ماذا نستفيد من هذه الخواتيم ؟ إن كنا أوفياء لله تعالى وصادقين في محبته فإن هذه الخاتمة (والله يحب كذا) ينبغي أن تكون كافية في تشجيعنا على تنفيذ الأمر، لنجعل على هذه الجائزة العظيمة: محبة الله لنا. كم تكررت هذه الخواتيم في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، ﴿فُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتَيْعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَانُهُمْ بُنَيَّنٌ مَرْضُوصٌ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

ألم تقف عند هذه الخواتيم من قبل ؟ ألم تشعر بالسعادة الغامرة إن كنت من أصناف الناس الذين يحبهم الله تعالى ؟ ألا تعني لك هذه المحبة الشيء الكثير ؟ ألا تستحق محبة الله أن تكون أسمى الأمنيات وأجل معنى نعيش من أجله ؟

إن لم نقف عند هذه الخواتيم من قبل، إن لم نحرص على أن نكون من أهلها، إن لم تكن محبة الله كافية في أن نكون من المحسنين والصابرين والمتقين والمتطهرين والمتبعين للرسول الأميين والمتوكلين، وفي سبيل الله من المقاتلين .. إن لم تكن محبة

الله كافية في أن نبذل جهودنا في التخلق بهذه الأخلاق.. ألا يدل ذلك على أن هناك جفافاً في محبتنا لله ونقص اهتمام بمحبته لنا؟

وفي المقابل : ترى أن الله تعالى نهى عن أمور وأتبع النهي بأنه تعالى لا يحب من يفعل كذا: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ﴾، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَابِنِينَ﴾..

أخي راجع نفسك ، هل كنت كلما قرأت هذه الآيات تفكـر بالطريقة التالية: (إن لم يحبني الله فسيعرضني لبلاء أو يحرمني من نعيم)؟ هل هذا هو كل ما يهمك؟ أن يستمر النعيم ويدفع البلاء؟ ألم تشعر بوخز وألم ألا يحبك الله تعالى؟ أليس هذا شيئاً مرعباً وعقوبة كافية في ذاتها ألا يحبنا الله؟ ألا تكفي هذه العقوبة في أن تحرض كل الحرص على بعد عن الظلم والعدوان والإسراف والخيانة لأن الله تعالى لا يحب من اتصف بهذه الصفات؟.. أن تفتـش في أقوالك وأفعالك وتحاسب نفسك حساباً دقيقاً خشية أن تفقد محبة الله لك وأنـت لا تشعر؟

أسأل نفسك هذه الأسئلة لتعرف إن كنت أقرب إلى شخصية رامي الجاف أم غسان الذي لم يطق أن يرى العبوس في

وجه أبيه ولم يتصور العيش وهو يحس بنقص محبة أبيه له،
لوفاءٍ ونبلٍ في نفسه.

ألا ترى كيف أن الطفل الصغير يستمد ثقته بنفسه من محبة والديه له؟ لا يشعر بالاستقرار والطمأنينة إلا إذا عبر والداه عن محبتهما له.. إذا قال له أبوه: لا أحبك، فإن هذا يهدد استقراره ويdemر ثقته بنفسه ويعطيه نظرة سوداوية للحياة. ألسنا نحن الخلق عيال الله تعالى ما لنا معيل ولا ملجأ إلا هو سبحانه وتعالى.. إذا قال الله لك: لا أحبك.. ألا يخيفك ذلك؟ ألا يجعلك ترتعد؟ ألا يسود الحياة في وجهك؟ ألا يهدد ذلك استقرارك وطمأنينتك؟ ألا ينبغي لك أن تخاسب نفسك على كل قول أو فعل يمكن أن يجعلك من هؤلاء الذين ذكر الله تعالى في كتابه أنه لا يحبهم؟

عندما يتشرب قلبك هذا المعنى فستجد وقعاً عظيماً وإحساساً جديداً بكثير من الآيات والأحاديث، مثل قوله تعالى:
﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾
[التوبه: 21].. تأمل هذه الآية كلمة لترى كيف تنبع منها محبة الله.. وفي المقابل الآيات والأحاديث التي تذكر أصنافاً من الناس لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم.. فكفى بها عقوبة ألا يكلمك حبيبك ولا ينظر إليك إن كنت صاحب قلب حي..

تأمل معي كذلك الحديث الذي رواه البخاري أن الله يقول
 لأهل الجنة: ((يا أهل الجنة))، فيقولون: لبيك وسعديك ، والخير
 في يديك، فيقول: ((هل رضيتم؟)) فيقولون : وما لنا لا نرضى يا
 رب، وقد أعطيتنا مالكم تعط أحداً من خلقك، فيقول:
 ((ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟)) فيقولون: يا رب، وأي شيء
 أفضل من ذلك؟! فيقول :
 ((أَحَلَّ عَلَيْكُمْ رَضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَ أَبْدًا)) ..

يصعب على جاف الشعور أن يفهم لماذا هذه أعظم النعم!
 فما دام أهل الجنة في ظل ممدود وفاكهه كثيرة وحور عين فماذا
 يضيف إليهم رضوان الله في نظره؟!

أما صادق المحبة فيعلم أن رضا المحبوب أسمى الأمنيات
 ومنتهى الطموحات: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمَنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَكِينٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ
 أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبه: 72].. نعم! رضوان الله أكبر
 من النعم الأخرى كلها.. أكبر من الجنات والأنهار والمساكن
 الطيبة.. إنه رضا أعظم محبوب سبحانه وتعالى.

تأمل معي كذلك قوله تعالى: ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُم﴾ [البقرة: 152].. يتودد إلينا ربنا ويطلب منا أن نذكره ويعيننا حينئذ بجائزه.. ما هي هذه الجائزة؟ أن يذكراً تعالى. ضعيف المشاعر لا يفهم ما الميزة في أن يذكر الله العبد. أما صادق المحبة فيكتفيه أن يذكره أعظم محبوب: الله سبحانه وتعالى.

تأمل معي كذلك الحديث الذي يصور فرحة الله تعالى بتوبة عبده: ((لَهُ أَفْرَحٌ بِتُوبَةِ عَبْدٍ مِّنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَّةِ)) (رواه مسلم). فالإنسان النبيل المؤمن يكتفي دافعاً إلى التوبة علمه بأنها ستفريح من؟ ستفريح أعظم محبوب.. الله سبحانه وتعالى!

بل هناك بعد آخر جميل أيضاً : إذا أهداك من تحب هدية، فبأيهما أنت أفرح؟ بالهدية ذاتها أم بدلالتها على محبة من أهداها لك؟ بل تفرح أكثر لأن من أهداها إليك يعبر بذلك عن حبه. لذا ففرحة أهل الجنة مضاعفة، فهم ليسوا فرحين بما آتاهم الله من فضله فحسب، بل وبدلالة هذا الإنعام على حب الله لهم ورضاه عنهم كذلك..

فلا تنس استشعار هذا المعنى كلما قرأت آيات وأحاديث الإنعام الإلهي.. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾، ﴿أَعَدَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ظَاهَرُوا﴾،

﴿ءَاتَاهُمُ اللَّهُ﴾ .. رضا الله الذي يدل عليه هذا النعيم أهم من النعيم نفسه.

طبعاً لا يعني ما تقدم أن المؤمن يطيع الله تعالى ويعبده محبة فحسب دون انتظار ثواب أو خوف عقاب، فهذا شطط تردد نصوص القرآن والسنّة كقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ حَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16] .. قوله تعالى: ﴿وَرَيَّجُونَ رَحْمَةَ رَبِّهِمْ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: 57] .. إنما المقصود التنبية على معنى كثيراً ما يغيب عن الأذهان ينبغي أن يحتف بالخوف والرجاء، ألا وهو طاعة الله حباً له تعالى والحرص على حبه تعالى لنا ورضاه عنا.

هل اقتنعت الآن أن الله تعالى يتودد إلينا؟ هل استوقفتك هذه الآيات من قبل؟ هل كنت حريصاً على أن تبادل الله الود ودداً أم أنك التهيت بالنعم عن المنعم؟ إذا كنت التهيت فلا تعجب عندما يبتليك الله تعالى ليذكرك أن تبادله الود ودداً. حتى لو كان الابتلاء شديداً، فلن يكون أشد من جفاف الروح وقطط القلب بخلوه من تذوق تودد الله لنا ومبادلة هذا الود ودداً. فإذا دفعك البلاء إلى هذا التذوق فقد ربحت كل شيء، ولم تخسر شيئاً، مهما كانت خساراتك كبيرة في الظاهر.

الحمد لله على أنه لم يعطني ما تمنيت !

ذكرنا أن البلاء يعينك على أن تبني حبك لله على أساس سليمة، وقلنا أن من هذه الأساس تأمل أسماء الله وصفاته. البلاء يعينك على فهم هذه الأسماء والصفات.

- سنتكلم بداية عن صفة الحكمة.. حكمة الله تعالى في الابلاء.
- سبحان الله! من الناس من يشككه البلاء في حكمة الله، بينما المؤمن يزيده البلاء يقينا بحكمة الله!

قال ابن عطاء الله السكندري: "متى فتح -أي الله تعالى- لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء. متى أعطاك أشهَدَك بِرْه، ومتي منعك أشهَدَك قهره، فهو في كل ذلك مترعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك. إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه".

إذن، قد تُحرم من نعمة.. فإن وفقك الله للتفكير في حكمته عندما حرمت، فإن هذا التفكير سيعود عليك بعطایا هي أعظم بكثير مما حرمت منه، وسترى أن الله تعالى يُعرفك بأسمائه وصفاته من خلال هذا البلاء. أما الذي لا يرى البلاء إلا شرّاً محضاً فمصيبته في قلة التفكير وقلة فهم حِكم الله.

قال ابن القيم: (ولو أنصف العبد ربه، وأنّ له بذلك، لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعمتها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه) (الفوائد).

المفتاح للتفكير والفهم هو أن توقن أن الله في كل شيء حكمة. تجاوز الشك في وجود الحكمة. أيقن بحكمة الله ثم تفكّر: ما هي هذه الحكم؟ وستفتح لك حينئذ كنوز عظيمة.

والمفتاح الآخر أن توقن بجهلك في مقابل حكمة الله: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكُرُّهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

مررت ببلاءٍ تقييد حرطي.. في كل مرحلة منه كنت أتمنى أن يتوقف البلاء عند هذا الحد وأعود إلى حياتي كالمعتاد. وفي كل مرحلة كنت أظن أن توقف البلاء عند هذا الحد هو الأنفع لي. لكنني في كل مرحلة كنت أكتشف أن استمرار البلاء كان أنسف لي من توقفه! والآن لو سئلت: هل تتمني لو أن كل هذا الذي حدث لك لم يحدث؟ فجوابي: لا والله! بل أنا سعيد جداً بأن الله تعالى لم يحقق لي ما تمنيته ودعوت به من العودة لحياتي الطبيعية، بل اختاري ما هو أفضل من اختياري لنفسي.

أحمد الله على أن استمرت نعمة البلاء هذه المدة كلها لأقطف منها الهدايا الربانية العظيمة.

قال ابن القيم: (ومن الآفات الخفية العامة أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له فيملأها العبد ويطلب الانتقال منها إلى ما يزعم -لجهله- أنه خير له منها. وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة ويعذرها بجهله وسوء اختياره لنفسه...).

ثم قال:

(إذا أراد الله بعده خيراً ورشدًا أشهده أن ما هو فيه نعمةٌ من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه) (الفوائد).

والحمد لله وصلت إلى هذه المرحلة في أواخر بلائي: لم تعد المسألة صبراً فحسب، بل أصبحتأشكر ربى على ما أنا فيه من نعمة البلاء.

قبل تجربتي تلك كنت أتساءل أحياناً عن الحكمة في تقدير البلاء على علماء ودعاة يفيدون الناس بدعوتهم وهم أحرار، كالأمام أحمد بن حنبل وابن تيمية وابن القيم وسيد قطب وغيرهم. كنت أفهم بعض الحكم من ذلك، لكنني كنت أتمنى أن يطمئن قلبي أكثر. كنت أفهم جانباً من الحكمة نظرياً لكنني بتجربة البلاء فهمتها عملياً.

إذا ابْتُلِيْتَ وَوَفْقَكَ اللَّهُ لِلْفَهْمِ فَسْتَرِيْ كِيفَ أَنْ مَنْ يَعْمَلُ
لِلْإِسْلَامِ تَبْقَى فِي شَخْصِيْتِهِ حَلْقَةً مَفْقُودَةً لَا تَكْتُمُ إِلَّا بِالْتَّضْحِيَةِ،
عِنْدَمَا يَقْدِمُ ثُمَّ مَنْ دَعَوْتَهُ.

سْتَرِيْ كِيفَ أَنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ عَلَى الْأَسِيرِ فِي سَبِيلِهِ فَتْوَحَاتٍ مَا
كَانَتْ تَخْطَرُ بِيَالِهِ خَارِجَ السَّجْنِ. سَتَفْهَمُ كُلَّ كَلْمَةٍ مِنَ الْكَلْمَاتِ
الْتَّالِيَةِ الْعَظِيمَةِ لِسَيِّدِ قَطْبِ رَحْمَةِ اللَّهِ:

(فَلَا بدَ مِنْ تَرْبِيَةِ النُّفُوسِ بِالْبَلَاءِ وَمِنْ امْتِحَانِ التَّصْمِيمِ عَلَى
مَعْرِكَةِ الْحَقِّ بِالْمَخَاوِفِ وَالشَّدَائِدِ وَبِالْجُوعِ وَنَقْصِ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ الثَّمَرَاتِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَيْشِرُ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155] ..
لَا بدَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ لِيُؤْدِيَ الْمُؤْمِنُونَ تَكَالِيفَ الْعِقِيدَةِ كَيْ تَعْزِيزَ
عَلَى نُفُوسِهِمْ بِمَقْدَارِ مَا أَدْوَاهُ فِي سَبِيلِهِ مِنْ تَكَالِيفِهِ، وَالْعَقَائِدِ
الرَّحِيقَةِ الَّتِي لَا يُؤْدِي أَصْحَابُهَا تَكَالِيفُهَا لَا يَعْزِيزُ عَلَيْهِمُ التَّخْلِيَّ
عَنْهَا عَنْ الصَّدَمةِ الْأُولَى. فَالْتَّكَالِيفُ هَذِهِ هِيَ الثَّمَنُ النَّفِيسُ الَّذِي
تَعْزِيزُ بِهِ الْعِقِيدَةُ فِي نُفُوسِ أَهْلِهَا قَبْلَ أَنْ تَعْزِيزَ فِي نُفُوسِ الْآخَرِينَ،
وَكَلَمَا تَأْمُلُوا فِي سَبِيلِهِ وَكَلَمَا بَذَلُوا مِنْ أَجْلِهَا كَانَتْ أَعْزَى عَلَيْهِمْ وَكَانُوا
أَضَنَّ بِهَا.

كَذَلِكَ لَنْ يَدْرِكَ الْآخَرُونَ قِيمَتَهَا إِلَّا حِينَ يَرَوْنَ ابْتِلَاءَ أَهْلِهَا
وَصَبْرَهُمْ عَلَى بِلَائِهَا. وَلَا بدَ مِنْ الْبَلَاءِ كَذَلِكَ لِيَصْلُبَ عَوْدَ أَصْحَابِ

العقيدة ويقوى. فالشدائـد تستجيش مكنون القوى، ومـدخلـور الطـاـقة، وتفـتح في القـلـوب منـافـذ وـمـسـارـب ما كان لـيـعـلـمـها المؤـمنـ إـلا تحت مـطـارـق الشـدائـد.

والـقيـمـ والـمواـزـينـ والـتـصـورـاتـ ماـكـانـتـ لـتـصـحـ وـتـدقـ وـتـسـتـقـيمـ إـلاـ فـيـ جـوـ الـمحـنـةـ الـتيـ تـزـيلـ الغـبـشـ عـنـ الـعـيـونـ وـالـرـأـنـ عـنـ الـقـلـوبـ.ـ وأـهـمـ مـنـ هـذـاـ كـلـهـ،ـ أـوـ الـقـاعـدـةـ لـهـذـاـ كـلـهـ:ـ الـالـتـجـاءـ إـلـىـ اللهـ وـهـدـهـ حـيـنـ تـهـزـ الـأـسـنـادـ كـلـهـ،ـ وـتـتوـارـىـ الـأـوـهـامـ وـهـيـ شـتـىـ.ـ وـيـخـلـوـ الـقـلـبـ إـلـىـ اللهـ وـهـدـهـ لـاـ يـجـدـ سـنـدـاـ إـلاـ سـنـدـهـ.ـ وـفـيـ هـذـهـ الـلحـظـةـ قـدـ تـنـجـلـيـ الـغـشـاـوـاتـ،ـ وـتـنـفـتـحـ الـبـصـيرـةـ،ـ وـيـنـجـلـيـ الـأـفـقـ عـلـىـ مـدـ الـبـصـرـ:ـ لـاـ شـيـءـ إـلـاـ اللهـ،ـ لـاـ قـوـةـ إـلـاـ قـوـتـهـ،ـ لـاـ حـوـلـ إـلـاـ حـوـلـهـ،ـ لـاـ إـرـادـةـ إـلـاـ إـرـادـتـهـ،ـ لـاـ مـلـجـأـ إـلـاـ إـلـيـهـ..ـ لـذـلـكـ إـنـ اللهـ قـدـ وـضـعـ الـابـتـلـاءـ لـيـنـكـشـفـ الـمـجـاهـدـوـنـ وـيـتـمـيـزـوـ،ـ وـتـصـبـحـ أـخـبـارـهـمـ مـعـرـوـفـةـ،ـ وـلـاـ يـقـعـ الـالـتـبـاسـ فـيـ الصـفـوـفـ،ـ وـلـاـ يـبـقـيـ مـجـالـ لـخـفـاءـ أـمـرـ الـمـنـافـقـينـ،ـ وـلـاـ أـمـرـ الـضـعـافـ الـجـزـعـيـنـ)ـ اـنـتـهـيـ كـلـامـهـ رـحـمـهـ اللهـ مـنـ كـتـابـهـ (ـفـيـ ظـلـالـ الـقـرـآنــ تـفـسـيـرـهـ سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ).

إـذـنـ هـذـهـ مـنـ حـكـمـ اللهـ تـعـالـىـ فـيـ اـبـتـلـاءـ الدـعـاـةـ.ـ صـحـيـحـ أـنـهـمـ لـوـ بـقـواـ بـكـاملـ حـرـيـتـهـمـ لـرـيـمـاـ تـمـكـنـواـ مـنـ مـخـالـطـةـ النـاسـ وـقـرـاءـةـ الـمـارـاجـعـ وـبـثـ الـمـؤـلـفـاتـ أـكـثـرـ.ـ لـكـنـ اللهـ تـعـالـىـ يـرـيدـ أـنـ يـخـلـصـ نـيـاتـهـمـ وـيـبـثـ الـحـيـاةـ فـيـ كـلـمـاتـهـمـ..ـ فـكـماـ قـيـلـ:ـ فـعـلـ رـجـلـ فـيـ أـلـفـ رـجـلـ أـبـلـغـ مـنـ قـوـلـ أـلـفـ رـجـلـ فـيـ رـجـلـ.

- لا يعني هذا أنك ستحيط بحكمة الله في البلاء كلها أو أن لك
ألا تحسن الظن حتى تدركها.. فالله تعالى قال: ﴿وَمَا أُوتِيْتُم مِّنَ الْعِلْمِ
إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] ...

- فلن تدرك إلا قليلاً من حكم الله تعالى. لكنه سبحانه برحمته
أطلعك على شيء من حكمته ليطمئن قلبك.

خلاصة هذه المحطة:

ثق بحكمة الله في ابتلائك، وسيكشف لك كنوراً عظيمة.

ستخرج في اللحظة المناسبة !

لا زلنا نتكلّم عن حكمة الله عز وجل في الابلاء، وهنا نضيف عنصراً جديداً ألا وهو الحديث عن: حكمة الله عز وجل في اختيار مدة البلاء.

كان يأتيني أحياناً خاطر في بلائي فأقول في نفسي: (حتى هذا الحد استفدت كثيراً من هذه التجربة لدیني، لكنني أخشى إن طال البلاء أن يصبح المفعول عكسياً)!

ثم قلت لنفسي: وما شأنك أنت؟ أنت عبد؛ دع أمرك لله عز وجل الحكيم الخبير العليم، هو أعلم بمدة البلاء، وشدته، وتوقيته، ونوعه، يختار ما يشاء سبحانه وتعالى، وهو الحكيم في اختياره.

حتى نفهم هذا المعنى؛ تعالى تتأمل قصة غزوة الأحزاب (الخندق):

وقع البلاء في وقته، وارتفع في وقته.. كانت الأزمة قد استمرت حتى وقع التمايز التام بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض المؤمنين، وانكشفت حقائق الرجال..

فمن حكمة الله ورحمته أن البلاء استمر إلى أن تحققت هذه الأمور، فیأخذ المؤمنون حذرهم من المنافقين، ولا يتأثرون بعدها بأقوالهم وسمومهم التي ينفثونها بمكر.

ومن حكمة الله ورحمته أيضاً أن البلاء لم يستمر ويشتد أكثر من ذلك فتزل قدمُ بعد ثبوتها وينخلع بعض المؤمنين عن إيمانهم ويقيئون.

﴿وَلَمَّا رَأَهَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 22].

فالمؤمنون لما رأوا الأحزاب ثبتو وصبروا، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى) .. فنجاهم الله عز وجل بإيمانهم وأنطقوهم بكلام حفظ عليهم دينهم..

وقولهم: «هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» .. قال المفسرون أنهم يعنون به قول الله تعالى في سورة البقرة: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثْلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءامَنُوا مَعَهُ وَمَنِيَ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٦٦) (قال ابن عاشور إن هذه الآية نزلت قبل وقعة الأحزاب بعام).

لكن البلاء استمر واشتد.. ودام الحصار شهراً، وفي هذا الشهر: جوع، برد، خوف..

حاول المشركون الإغارة على المسلمين من نقاط ضعف في الخندق.

وبلغت الأمور ذروتها عندما علم المسلمون أن يهودبني قريظة نقضوا العهد وتحالفوا مع المشركين.. والآن، في أية لحظة، يمكن

ليهود بنى قريظة أن يفتحوا بواباتهم، فينساح المشركون في المدينة
ويعيثوا فيها قتلاً وتعذيباً وانتهاكاً للأعراض.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ قَوْقَعَةٍ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
الْأَبْصَرُ وَبَلَغَتِ الْأَقْلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظْلَمُونَ بِاللَّهِ الظُّلُمُونَ ۚ ۝ هُنَالِكَ أَبْتُلِي
الْمُؤْمِنُونَ وَرُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝﴾ [الأحزاب: 10.. 11].

في هذه اللحظة نجى الله المؤمنين، وأرسل الله الريح فاقتلت
خيام المشركين، وكفأت قدورهم، وشردت جموعهم، وانسحبوا
مهزومين. انظر -سبحان الله العظيم!- إلى هذا التوقيت
المناسب.

تعال الآن نتأمل:

ماذا كان سيحصل لو تأخر النصر عن هذا الحد؟

وماذا كان سيحصل لو جاء النصر قبل هذا التوقيت؟

لو تأخر النصر -أكثر فأكثر- يخشى أن بعض المؤمنين كان سينطق
كلاماً أو يفعل أفعالاً كما صدر من المنافقين.

المنافقون كانوا يقولون: "قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم،
وقد حصرنا هنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما
وعدنا الله ورسوله إلا غروراً" (الطبرى).

لو تأخر النصر لربما اعتمد الشك في قلوب المؤمنين وحال في
صدورهم ما يهدم ماضيهم ويذهب حسناتهم.

لكن الله -عز وجل- بحكمته ورحمته حفظ عليهم دينهم؛ فلم يتأخر النصر أكثر من ذلك الحد؛ لأن الله يبتلي المؤمن على قدر دينه.

طيب، السؤال الآخر:

لماذا لم يأتي النصر قبل ذلك؟

لماذا لم تحسם المعركة ولم تأت الريح في اليوم التالي من الحصار،
الأسبوع الأول من الحصار، الأسبوع الثاني من الحصار؟
لماذا امتد الحصار شهراً كاملاً؟

للله في ذلك حكم، منها -والله تعالى أعلم بحكمته- أن الله عز وجل أراد أن يصلب عود المؤمنين، فكلما اشتد البلاء صلب عودهم وترقّوا في المنازل.

ومنها أن هذه الزلزلة التي حصلت لهم كسرتهم أمام الله وأشعّرْتُهم بافتقارهم إلى رحمته سبحانه وضعفهم في المقابل، فلا يصيّبهم العجب بأنفسهم ولا يغتروا بها، ولا يسندون الفضل إلى أنفسهم في الصبر والثبات، بل يسندون الفضل كله إلى الله عز وجل الذي نجاهم في اللحظة الحرجة.

إذن:

لم يتأخر النصر إلى حد يمكن أن يحييك معه في صدور المؤمنين ما يذهب بإيمانهم.

ولم يأت في مرحلة مبكرة قبل أن يشتد البلاء ويصلب عودهم وتذل نفوسهم لله ويعلموا أنَّ ليس لهم إلا الله عز وجل ويتمايزوا عن المنافقين وتنكشف لهم حقائق هؤلاء المنافقين.

فانظر إلى حكمة الله - سبحانه وتعالى - في مدة البلاء.
فسبحان الحكيم الخبير الذي لا يُضيئ عملَ عباده المؤمنين، وفي الوقت ذاته يرييهم ويؤدبهم.

خلاصة هذه المحطة:

أيقن بحكمة الله في اختيار مدة البلاء.

مذاقات لا توصف!

- لا زلنا نتكلّم عن حكمة الله عز وجل.. وكيف أنك عندما تتأمل حكمته تعالى في الابلاء يكون ذلك سبباً في زيادة محبة الله، فتنقلب المحنة منحةً، بخلاف الذين ينهارون حبهم لله إذا ابتلوا.
- قبل نعمة البلاء الذي مررت به كنت أتساءل: كيف يصبر المؤمنون الذين يبتليهم الله بابلأءات شديدة. كنت أؤمن بقدرته تعالى على تصويرهم لكن أتمنى أن يطمئن قلبي. وعندما خالطت نماذج من هؤلاء الناس كان من نعمة الله علي أن فهمت كيف يصبرون. فأورثني ذلك سلامـة صدر تجاه أقدار الله تعالى.
- رأيت أولاً أن من حكمة الله تعالى أنه لا يبتلي عباده المؤمنين بقواسم ظهر لا يتحملونها.. بل ببلاء يتـناسب مع إيمانهم.
- روى الترمذـي عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: ((الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلي الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فـما يـرـجـ الـبـلـاءـ بـالـعـبـدـ حـتـىـ يـتـرـكـهـ يـمـشـيـ عـلـىـ الـأـرـضـ وـمـاـ عـلـيـهـ خـطـيـئـةـ)) (رواه الترمذـي وقال: حسن صحيح، وصححـهـ الأـلـبـانـيـ وـشـعـيـبـ الـأـرـنـاؤـوطـ)

- ثانِيَا: رأيت كيف يرفق تعالى بعباده المؤمنين فيتدرج في ابتلائهم.. يبتلي على قدر الإيمان.. ثم يصبر.. فيزيد الصبر بالإيمان إلى درجةٍ تؤهله لتحمل ابتلاء أشد.. يبتليه الله ذلك البلاء.. ثم يصبر.. وهكذا.. فيبقى البلاء يمتنع بالإيمان فيرتقيان بالعبد في المنازل إلى درجة ما كان يحلم بها ولا يتصور أنه أهل لها في بداية بلائه !

- ثالثَا: حتى على فرض أن بلاءً شديداً حلّ بالمؤمن فجأة.. رأيت كيف أنه تعالى يمنح عبده المؤمن مذاقات تذاقُ ولا توصف! تماماً كطعم الفاكهة ورائحة العطور..

- لو طلبت منك أن تصف لي طعم البرتقال أو التفاح أو رائحة الياسمين أو الريحان.. هل تستطيع؟ هذه مذاقات تذاقُ ولا توصف.

- كذلك فإن عباد الله هؤلاء الذين لا تتصور كيف يصبرون، ذاقوا طعم السكينة والأنس بالله وتعلق القلب به والرضا بقضائه.. هذه المعاني مذاقات: تذاقُ ولا توصف. ذقت في تجربتي شيئاً منها فعرفت أثرها.. لكنني في نعمة البلاء خالطةُ أناساً أحسبهم خيراً مني وأكثر عيشاً لهذه المعاني مني.

- كانت بلايام شديدة، أشد من بلاي بكثير، ولكن وجوههم مع ذلك كانت تشرق بالرضا والبشر والسكينة، وألسنتهم تلهج بحمد الله واستصغار صبرهم ما دام لوجه الله تعالى. بل إن أحدهم قال لي: (إني، وأنا أدعوا الله بالفرج، أكاد أحياً أسائل الله ألا يستجيب دعائي، لما أتذكرة من عظيم أجري حينئذ في الدار الآخرة)!

- كنت أذكر لهذا الأخ أني أحسن الظن بالله تعالى أنه سيجعل لي فرجاً ومخرجاً قريباً، فكان يقول لي: (هذا جميل، ولكني أريد لك مستوى أرق من ذلك: أريدك أن تستمتع بنعمة البلاء!).

- تستمتع بنعمة البلاء! لم أفهم كلمته هذه في حينها لكنني بدأت أعيشها بعد فترة من استمرار "نعمـة البلاء".

- لقد رأيت في تجربتي طرفاً من حكمة الله في الابلاء.. بدأ البلاء خفيفاً في البداية وظننت أنه سينزول قريباً.. صبرني الله واشتد عودي فزاد البلاء.. وكلما اشتد، كانت تنزل من الله سكينة تُصْبِر. فالحمد لله الحكيم الرحيم.

- هذه المذاقات العجيبة إن لم تذقها فلنك أن ترى آثارها: سحرة فرعون ما كان لهم هم إلا: ﴿أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَلَيْلِينَ﴾ [الشعراء: 41].. كانوا قد عاشوا سنين طويلة على طلب الدنيا بالسحر ومخادعة الناس.

- ثم ما هي إلا لحظة من الهدى واليقين جعلتهم جبلاً رواسي
 أمام التهديد بالقطع والتصليب، يقولون لفرعون: ﴿قَالُوا لَنْ
 نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا
 تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْنَا
 عَلَيْهِ مِنَ السُّخْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 72..73] ﴿وَلَهُ مِنَ الْأَنْوَارِ﴾

- يا الله! أناس دنيويون طينيون.. في لحظة ذاقوا فيها هذه المذاقات التي لا توصف تحولوا إلى عمالقة تعلقت أرواحهم بالدار الآخرة لا يرجون من بشر نفعاً ولا يخافون ضراً!

فإذا رأيت أناساً صالحين يُبتَلَوْنَ بلايا شديدة، وثارت في صدرك تساؤلات عن حكمة الله في ابتلائهم، فقل: (عليّ نفسي. هم لم يشکوا ربهم سبحانه لأحد. فإن كانوا راضين بقضاء الله فما شأنني أنا؟ فالله أرحم بهم مني).. مع سعيك طبعاً في عونهم ورفع البلاء عنهم إن استطعت.

خلاصة هذه المحطة:

من حكمة الله تعالى
 أن يمنح أصحاب البلايا الشديدة مذاقات لا توصف.

عند طبيب الأسنان

ابنك .. تنسكه ألا يكثر من الحلويات وأن ينطف فمه منها كلما أكلها.

لا يستجيب لنصحك .. يأكلها بكثرة، يصيب أسنانه التسوس،
فيأتيك شاكيناً: (باباً أسناني توجعني).

(أذن هيا إلى الطبيب) ..

(لا يا بابا أرجوك! سأتألم).

(لا بد من ذلك يا بني، وإنما أستفحلاً التسوس وعانياً لما أشد).

تذهبان، يجلس على كرسي الطبيب، يبدأ بإزالة التسوس.. يصبح ابنك من الخوف والألم: (بابا أرجوك خلص)..

تنهره أنت: (اسكت يا بابا! دع الطبيب يعالجك)

يعود الطبيب للعلاج، يسكت ابنك ثم يصبح: (بابا خلص
بيكفي)..

تنهره بحزم: (الطيب أدرى، دعه يكمل عمله) ..

خلال ذلك، هل ينظر إليك طفلك بحقد؟! أبداً طبعاً، فهو يعلم أنك تريد مصلحته. هو لا يريد أن يتأنم، لكن يعلم أن معالجة الطلاق تهدف إلى إلهاه آلاماً أشد، فـ『ما بعد الطلاق』

أنت كأب، تتألم وأنت ترى ابنك يتآلم، حتى أنك قد تخرج من الغرفة لأنك لا تطيق سماع أنينه.

ينتهي العلاج في الوقت المناسب. يقوم ابنك عن الكرسي، وتنصرفان.. في طريق العودة، ينظر ابنك لك بمحبة وإجلال: (أبي يريد مصلحتي في كل ما يفعله. ها قد ذهب الألم وأتمتع أنا الآن بأسنان صحيحة)..

ولله المثل الأعلى.. ينهانا الله تعالى عن "حلويات" المعاصي ويأمرنا أن نتطرى منها كلما تناولناها..

تغافل، فتصيبنا الذنوب وأمراض القلوب. يعلم ربنا الرحيم أن هذه الذنوب والأمراض سوف تستفحل إن تركت وتؤذينا. فيضعننا على كرسي البلاء ليطهر قلوبنا منها. تألم، نخاف، نرجوه تعالى أن يقيمنا عن كرسي البلاء.. وربنا، برحمته، يعلم أن العلاج لم ينته بعد، وأنه لا زال في قلوبنا تسوس.

نعم، لك أن تدعوا الله مع ذلك أن يخرجك من البلاء وتُلحّ عليه، لكنك مهما طال العلاج تبقى تنظر إليه سبحانه نظرة ذلك الطفل الذي يعلم أن أباًه يريد مصلحته، فتحسن الظن بربك عز وجل وتوقن أن اختياره لك خير من اختيارك لنفسك، ولا يمكن للحظة أن تسيء الظن به، بل تبقى ترجوه وتحبه.

مهم جدًا أن تعلم: الله تعالى لا يحب أن يراك تتالم، لكن يحب أن يراك تتطهر، لأنه تعالى يعلم خطر الذنوب وأمراض القلوب عليك.

خلاصة هذه المحطة:

إذا تعرضت لبلاء، فاعلم أن الله أراد أن يظهرك ..
ارجه أن يفرج عنك، لكن طوال بقائك في بلائرك،
أحسن الظن بربك وازدد له حبًّا،
 فهو سبحانه أرحم بك منك بنفسك.

فَلَنْحِبُ اللّٰهَ لَأْنَهُ الْوَدُودُ

تصور أنك رأيت إنساناً لا تعرفه، فتبسمت في وجهه، ثم نسيت الموقف. فإذا بهذا الشخص يهديك سيارة ويقول لك: لن أنسى بسمتك. لقد أحسست فيها بمحبتك الصادقة لي. ثم بقي يتصل بك يشكرك على ابتسامتك. وقعت في مأزق فساعدك وسعي معك بوقته وجهده وماليه. مرضت فزارك وأطعمك بيده. استحييت منه وقلت له أنك لا تستحق منه هذا كلها.. فقال لك: لا.. لن أنسى لك تبسمك في وجهي. وبقي يظهر لك المحبة الصادقة التي لا تشوبها المصالح الدنيوية.

ماذا تسمى إنساناً كهذا؟ (ودود).. أليس كذلك؟ ألا تحس بالحياة الشديد من تعدد مثل هذا الإنسان؟ خاصة إن لم تستطع سداد معرفوفه وجميله؟

ولله المثل الأعلى! الله سبحانه وتعالى، الودود، يرضى عن عبده ويحبه ويكرمه على أفعال بسيطة جدًا لا يلقي لها العبد بالا.. بشرط واحد: أن يكون هذا الفعل أو القول أو الشعور خالصاً لوجه الله.

انظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه)) (صحيح رواه الترمذى). كلمة لعل العبد نسيها وما تصور أن تبلغ هذا المبلغ عند الله، لكنه تعالى يرضى بها عن العبد إلى الأبد لأنه: الودود.

في الحديث الذى رواه الإمام مسلم: ((لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهِيرَ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ)) .. عمل بسيط جدًا، لكننا تعامل مع: الودود سبحانه وتعالى.

الله تعالى يضعف الحسنة إلى عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لأنه تعالى: الودود.

دموع تنزل منك في لحظة تأملت فيها لطف الله وكرم الله وعظمة الله وحلم الله .. دموع.. يظللك الله بها في ظله ويحرم عينك بها على النار لأنه تعالى: الودود.. (ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه) (متفق عليه).. (عينان لا تمُسُّهما النارُ عينٌ بكت من خشية الله ، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله) (رواية البخاري).

في الحديث الذي رواه البخاري عن الرجل الذي أشفع على كلب فسقاه.. ((فشكراً لله له فغفر له)).

أعمال بسيطة لكن الله يشكرها لأنها الشكور، ويتودّد إلينا إذا فعلناها لأنّه تعالى: الودود.. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90] ..

قد يمحو لك جبالاً من الخطايا ولا يبالي، لكنه لا يمحو حسنة واحدة بلا سبب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120] .. لأنّه: الودود.

في الحديث الذي رواه مسلم يقول الله تعالى: ((من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة، فجزاؤه سيئة مثلها، أو أغفر. ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً. ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً. ومن أتاني يمشي، أتيته هرولة. ومن لقيني بقرب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة)) .. نعم. لأنّه تعالى: الودود.

الذي يجعلك تستحي من الله تعالى مع كرمه وتودده أنك لا تستطيع نفعه تعالى بشيء، لا تستطيع أن ترد جميله.. وفوق

ذلك.. هو تعالى الذي وفقك للعمل. العبد يختار، صحيح، لكن اختيارك الخير ما هو إلا بتوفيق الله لك. فيوفقك لعمل الخير، ثم يثبتك على الخير الذي وفقك له !

ثم الله إذا ابتلاك فصبرك أثابك على الصبر الذي وفقك هو له ! يثبتك ثواباً عاجلاً في الدنيا ولا بدّ، ولو بنعيم القلب وأنسه، ثم يثبتك في الآخرة.. ما هذا الكرم واللود؟.. لا عجب فهو تعالى: الودود.

في ثنايا البلايا رأيت من ربِّي عزوجل حلمًا ولطفًا ورحمةً ورأفةً وكرمًا وستراً وإعانةً أكثر مما تصورت! بحثت في ماضيٍّ وحاضرٍ لأرى لماذا ينعم الله علي بهذا الشكل! فلم أجده.. فبكية حياءً من ربِّي تعالى وقلت له: (والله يا رب ما بستاهل، والله يا رب ما بستاهل). إيه والله إني لا أستحق.. ولكنه تعالى: الودود.

ألا يكفي هذا كله في أن نحب ربنا تعالى بلا شروط؟ ألا يكفي هذا كله في أن نحبه في رحم المعاناة والبلاء وأن نأنس به ونكتفي بقربيه مهمما كانت الظروف؟

إخواني وأخواتي.. فلنحب الله لأنَّه تعالى: الودود.

لن ينبع الصبر من حنایا نفسك

لا زلنا نبني حبنا لله على أساس سليمة، أولها تأمل أسماء الله وصفاته. قلنا أنك إن أتقنت التعامل مع البلاء فإنك ستفهم أسماء الله تعالى وصفاته أكثر وأكثر من خلال البلاء، وهذا سيفضي في المحصلة إلى تحويل البلاء إلى سبب لزيادة محبة الله تعالى.

في المحطات الماضية تأملنا حكمة الله في البلاء ثم تودده لعباده بالبلاء. اليوم تتأمل صفة أخرى من صفات الله تعالى.. ما هي هذه الصفة؟

أحياناً نعاني من مشكلة، لا نعلم كم تستمر وإلى أي مدى ستتفاقم.. يشرق في نفوسنا الأمل بزوالها.. تلهج ألسنتنا بالدعاء.. لكن ما نلبث أن يعترينا الخوف ويتراءى لنا شبح اليأس عندما نفكري أن بلاءنا سيطول ويشتد..

نخاف حينئذٍ، لأننا ننظر في جوانب أنفسنا وحنایاها فلا نجد فيها ما يُعوّل عليه أن يصبرنا إذا وصل البلاء إلى الدرجة المخوفة. نتعامل مع المسألة بطريقة رياضية: فإن كانت المصيبة مرضًا يخشى أن يؤدي إلى العمى مثلاً، فإننا نعقد المعادلة التالية لتخيل المستقبل: أنا - بصر = إنسان تعيس.

وإن كان ابنك في غرفة العناية المركزية بين الحياة والموت
فالمعادلة: **الحياة - ابني = حزن مستمر .. وهكذا**

إننا ننسى في معادلتنا هذه عنصراً مهمّاً جدّاً وهو أن الصبر لن ينبع من جوانب نفسك الضعيفة عند حلول المصيبة أو اشتداها.. إنما هو ينزل من عند الله تعالى! المعين من استعان به. اختلف العلماء في اعتبار المعين من أسماء الله، لكنه بلا شك من صفاته تعالى.

إذن فالصبر ينزل من عند ربنا المعين تماماً كما ينزل النصر.. ينزل الصبر من عند الله لينصرك في معركتك ضد اليأس والحزن..
وَإِن يَنْصُرُكُمْ أَلَّا هُوَ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ [آل عمران: 160] ..

لاحظ: كما أن الله تعالى قال: **«وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»** [آل عمران: 126] .. فقد قال: **«وَأَصْبِرْ وَمَا صَبِرْتُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»** [النحل: 127] .. فتركيب الآيتين متشابه.

إنها حقيقة مهمة جداً! الصبر ينزل من عند الله وكذلك الأمان والسكينة.. والشاهد لذلك كثيرة قوله تعالى: **«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمَّ أَمْنَةً»** [آل عمران: 154] ، وقوله تعالى: **«فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ»** [الفتح: 18] ، وقوله تعالى حكاية عن السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام وهم على وشك أن تقطع أيديهم

وأرجلهم من خلاف ويسألبوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126]

تصوّر دلواً يفرغ بصبٍ ما فيه.. هم يطلبون من ربهم أن يصب عليهم الصبر صبًا..
ينزل الصبر كالمطر على القلوب المترجفة الحرى فيسكنها ..
ويبردها..

إنها ليست نفسك البشرية الضعيفة التي يعول عليها أن تختلق الصبر وتخوض المعركة!.. إنه الله المُعين الذي يثبت:
﴿يَتَبَّعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [إبراهيم: 27].. وبما أنه الله الذي يثبت
فليس هناك بلاء أكبر من تثبيت الله المُعين..
إنه الله تعالى الذي يربط على القلوب المترجفة التي كادت
تنخلع من الصدر حزنًا أو خوفًا من المجهول.. **﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾**
[الكهف: 14].. وحينئذٍ فلا شيء يخيف إن كان الله هو المُعين.

أم موسى عليه السلام.. ألقت ابنها في اليم، فترك وراءه قلبًا
فارغًا، قلب أم فقدت فلذة كبدها.. فنزل التثبيت من الله: **﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرِيقًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** [القصص: 10]..
إذن فالصبر ينزل نزولاً من عند الله المُعين. وبالتالي،
فالمعادلة لم تعد بالجمود الذي كنا نظنه، بل أصبحت:

أنا - بصر + صبر من الله = إنسان راضٍ.

الحياة - ابني + سكينة من الله = رضا واحتساب وانطلاقـة جديدة.

- أخي! لسنا من الملاحدة الذين لا يؤمنون إلا بالظواهر المادية، بل نحن نؤمن أن الله معنا. لسنا نقرأ في صلاتنا يومياً 17 مرة على الأقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].. هل خطرك بيالك وأنت مبتلى أن تتأمل هذه الآية عند قراءتها وتتصور قوّتك وأنت تستمد العون من الله تعالى أمام البلاء؟

- لا تقل (لن أصبر)! بل إن استعنت بالله أعنـك. انظر إلى قوله تعالى: ﴿قَلْ رَبِّ أَحَدُكُمْ يَا لَخْقَى وَرَبُّنَا الْرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 122] ، وإلى ما حكاـه عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وإذا استعنت فاستعن بالله)).

- لا تقل (لن أصبر)! لا بلاء أكبر من إعـانـة المـعـين إن استعنت به بصدق. تذكر أهل الأخدود وسحرة فرعون وماشطة ابنته.. كيف نزل عليهم صبر عظيم مقابل بلائهم الشديد بمجرد أن خالط الإيمان قلوبـهم فطابت نفوسـهم بالتضـحـية في سبيل الله معـ أنـهـم عـاشـوا حـياتـهم قـبل ذـلـك مـشـركـينـ. فالـذـي صـبـرـهـم قادرـ علىـ أنـ يـصـبـرـكـ إـذـاـ الجـاتـ إـلـيـهـ..

- لا تقل (لن أصبر)! فكل ما عليك فعله هو أن تستعين بربك الرحمن المستعان.. قال نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه مسلم: ((وَمَنْ يَتَصَبَّرُ يَصْبِرُهُ اللَّهُ)).

- لا تقل (لن أصبر)! بل إن استعنت بالله فسينزل عليك الصبر بالمقدار المناسب لِيُطْمِئِنَ قلبك، مهما كان حجم البلاء، قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْمٌ﴾ [التغابن: 11] .. أي: يهد قلبه للخير والصبر والرضا عند المصيبة.

- لا تقل (لن أصبر)! بل انظر إلى هذا الحديث العظيم الذي يلخص محطتنا هذه:

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي صححه الألباني: ((إن المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة)).

لاحظ الفاظ الحديث: ((إن المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة)).. على قدر التكليف، ((وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة)).. الصبر يأتي من الله تعالى المعين، ليس من جوانب نفسك الضعيفة. بل من الله، وبأي مقدار؟ ((على قدر المصيبة)).. بالمقدار المناسب.

خلاصة هذه المحطة:

كل ما عليك فعله هو أن تبرأ من حولك وقوتك،
وتؤمن أنه مالك إلا الله، فتستعين بالمعين،
وتصلح علاقتك به تعالى لتكسب معيته،
وحينئذ فلا بلاء أكبر من إعانة الله المعين.

الراحمون يرحمهم الرحمن

في المحطة السابقة تأملنا حكمة الله وتودده لعباده واعانته من استuan به في البلاء. وفي هذه المحطة سنتأمل صفة جديدة من صفات ربنا الحبيب، عندما تتأملها وأنت في رحم المعاناة يزداد حبك لخالقك ومولاك. إنها: رحمة الله. تعالوا نتأمل جمال هذه الرحمة حتى نطمئن فيها، ثم نعرف كيف نحصلها.

رحمة الله.. مصدر الفرج الأعظم!.. أمرنا الله أن نفرح بها فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] .. ﴿فِيذِلَكَ﴾: أسلوب حصر لأنه أولى ما يُفرح به.. لأن هذه الرحمة هي مصدر الفرج الحقيقي الذي لا يتضب ولا يتأثر بالظروف، أولى من متاع الدنيا الفاني.

عرف المفسرون هذا الفضل والرحمة بأنهما الإيمان والقرآن. هذان مصدر فرج تحمله في صدرك في السراء والضراء والشدة والرخاء. إيمانك بالله وتأملك لأسمائه وصفاته وشووقيك إلى لقائه واطمئنانك إلى معيته وانتظار كرامته.. ﴿فِيذِلَكَ فَلَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] ..

هل يملك أحد أن يمسك هذه الرحمة أو يمنعها من الوصول إلى عبد من عباد الله؟ لا والله. قال الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2] ..

سيد قطب رحمه الله.. له تأملات جميلة جدًا في هذه الآية ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2] .. الجميل أنه كتبها وهو يعاني من المرض والسجن الطويل في ظروف صعبة قبل أن يُعدم.. أنسحكم إخواني بقراءتها وتأملها مراراً.. اكتب الآية في محرك البحث ثم (في ظلال القرآن) .. واقرأ وتدبر. مما جاء في كلماته - بالمعنى -:

أن هذه الآية حين تستقر في القلب تحدث تحولاً جذرياً في مشاعر الإنسان وموارينه، فتبيّنه من كل رحمة في الأرض وتعلقه برحمة الله، تلك الرحمة التي يستشعرها قلب المؤمن في كل وضع ولو فقد كل شيء.. فمن أنعم الله عليه بهذه الرحمة ينام على الشوك، فإذا هو مهادلين، بينما إذا فقد رحمة الله ينام على الحرير فيجده شوگاً، لأنه تعالى قال في الآية نفسها: ﴿وَمَا يُمْسِكُ﴾ يعني من الرحمة - ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ .. فإن أمسك الله رحمته عن عبد فقوى الأرض كلها لا تعارض مشيئة الله ولا تنزل رحمته بهذا العبد. فمن أنعم الله عليه بالرحمة فإن ينابيع

السعادة والطمأنينة تنبع في نفسه وإن كان في غياب السجن
ورحم المعاناة.

ثم قال:

(ومن رحمة الله أن تحس برحمة الله ! فرحمه الله تضمك وتغمرك
وتفيض عليك، ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة، ورجاؤك فيها
وتطلعك إليها هو الرحمة، وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو
الرحمة. والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها
أو شكك فيها، وهو عذاب لا يصبه الله على مؤمن أبداً :
﴿إِنَّهُ لَا يَأْئِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَفِرُونَ ﴾ [يوسف: 87] ..

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال . وجدها
إبراهيم عليه السلام في النار، ووجدتها يوسف عليه السلام في
الجحّ كما وجدتها في السجن، ووجدتها يونس عليه السلام في
بطن الحوت في ظلمات ثلاثة . ووجدتها موسى عليه السلام في اليم
وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدتها في قصر
فرعون وهو عدو له متريص به ويبحث عنه . ووجدتها أصحاب
الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم
لبعض : **«فَأَوْرًا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ»** [الكهف: 16] ،
ووجدتها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار والقوم
يتعقبونهما ويقصون الآثار.. ووجدتها كل من آوى إليها يأساً من
كل ما سواها .

أية طمأنينة؟ وأي قرار؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير؟! آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة؛ وتنشئ في الشعور قيماً لهذه الحياة ثابتةً؛ وموازين لا تهتز ولا تتارجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها).

إذن أخي أيّاً كان بلاؤك، ومهما كانت شدته.. اطلب رحمة الله..
وستجدها.

ثم قال سيد رحمة الله - وهنا أنقل قوله باختصار:-

(ويبقى أن أتوجه أنا بالحمد لله على رحمة منه خاصة عرفتها منه في هذه الآية. لقد واجهتني هذه الآية في هذه اللحظة وأنا في عسر وجهد ضيق ومشقة. واجهتني في لحظة جفاف روحي، وشقاء نفسي، وضيق بضائقه، وعسر من مشقة.. وييسر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها، وأن تسكب حقيقتها في روحي؛ لأنما هي رحique أرسفه وأحس سريانه ودببه في كياني. حقيقة أدوقها لا معنى أدركه، فكانت رحمة بذاتها - أي هذه الآية بذاتها أحّسّها رحمة خاصة له من الله في لحظة عسره تلك - وقد قرأتها من قبل كثيراً، ومررت بها من قبل كثيراً، ولكنها اللحظة تسكب رحiqueها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: هأنذا.. نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها. فانظر كيف تكون؟

إنه لم يتغير شيء مما حولي. ولكن لقد تغير كل شيء في حسي! إنها نعمة ضخمة أن يتفتح القلب لحقيقة كبرى من حقائق هذا

الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها هذه الآية. نعمة يتذوقها الإنسان ويعيشها؛ ولكنه قلما يقدر على تصويرها، أو نقلها للآخرين عن طريق الكتابة. وقد عشتها وتذوقتها وعرفتها. وتم هذا كله في أشد لحظات الضيق والجفاف التي مرت بي في حياتي. وهأنذا أجد الفرج والفرح والري والاسترواح والانطلاق من كل قيد ومن كل كرب ومن كل ضيق، وأنا في مكاني! إنها رحمة الله يفتح الله بابها ويسبّب فيضها في آية من آياته) انتهى من كلامه رحمه الله باختصار.

كلام جميل جدًا من إنسان أحس فجأة برحمه الله فأغنته عن الدنيا كلها وهونت عليه المصاعب كلها.

أخي /أختي، أنت في الأوضاع الاعتيادية عندما تحس بالفرح فإنك قد تعزو هذا الفرح إلى الأسباب المادية.. صحتك،مالك، مكانتك، زوجتك، أولادك، ما تتلذذ به من طعام وشراب.. لكن عندما تكون في بلاء شديد وتفقد كثيراً من الأسباب المادية ومع ذلك تحس فجأة بالفرح، فإنك تدرك حينئذ أن هذه الفرحة ما هي إلا من رحمة الله وبرحمة الله .. واحظ تجدها وسط صحراء العناء.

هذه رحمة الله يا إخواني وأخواتي. أرجو أن تكونوا قد طمعتم فيها.. طيب، ماذا نفعل حتى نحصلها؟

قال ربى سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56] .. كن من المحسنين.. الواحد منا عادةً إذا وقع في مشكلة يشغل نفسه وبمشكلته وكيفية التخلص منها، ويتحسر على ما فاته ويخاف من المستقبل.. ننسى في هذه اللحظات الحرجية أن نكون من المحسنين لستأهل رحمة الله.. ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56] ..

ما أجمل أن يصبح الخير فيك سجيةً وطبعاً، فتجد نفسك تحسن وتفعل الخير تلقائياً وأنت في أحرج الظروف، لأنك تعودت ألا تعيش لنفسك بل تعيش للناس ولخدمة دينك.

ماذا عليك أن تفعل حتى تستأهل رحمة الله؟ ارحم..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)) (أخرجه أبو داود والترمذى وأحمد، وقال الترمذى: حسن صحيح).

عاشرتُ أنساً فرأيت منهم عجائب!.. أحدهم قد تعود على بذل الخير وعلى أن يعيش للناس وييسعى في تفريج كرباتهم، وهو في منطقته معروف بذلك. تعرف أثناء حبسه على شابٍ قتل رجلاً

فحكم عليه بالسجن المؤبد، ثم إن هذا الشاب استقام وصلاح أمره في السجن، فُنقل إلى القسم الذي فيه متدينون. الأخ المحسن الرحيم تعرف على هذا الشاب من وراء الجدران.. لم يلتقي به ولم ير وجهه، لكنه عرف أن الأخ القاتل يمكن الإفراج عنه إذا تصالح أهله مع أهل القتيل على مبلغ من المال.. فبدأ أخوه بالتنسيق مع زواره من أشقاءه لجمع المال لهذا الشاب ليفرج كريته. لم يلهمه السجن عن فعل الخير، بل هو يسعى - وهو أسير - في تفريج كرب الشاب. كان يوصي - من الأسر - بإعطاء مال من ماله لأرامل ومحتجين. مثل هذا نحسبه يحس برحممة الله أينما كان وفي كل ظرف.. فالراحمون يرحمهم الرحمن.

آخر كان قد مرّ بظروف صعبة للغاية، لكنه مع ذلك كان رحيمًا بأخوانه.. مرضت مرة فوضع رأسي في حجره وقرأ عليَّ قرآنًا ورقاني وعيناه تدمعن لرقة قلبه.. وهو ذاته الذي قال لي: (أريدك أن تستمتع بنعمة البلاء)! رضًا وطمأنينة.. فالراحمون يرحمهم الرحمن.

ورأيت من كانوا يعبرون عن رحمتهم بوضع قطع من الطعام المقدم لهم في صرر ورميها للقطط المارة من فوق شبك غرف السجن!

تريد رحمة الله التي لا يمسكها أحد من الجن أو الإنس؟ تريد رحمة الله التي بها الفرح الحقيقي؟ عود نفسك على الرحمة والإحسان في كل الظروف. ألم تر أن الله تعالى امتدح من يؤثر إخوانه على الرغم من فقره فقال في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَايَةً﴾ [الحشر: 9]؟ يعانون من بلاء الفقر ومع ذلك يحسنون.

ألم تر إلى قول النبي : ((مَن نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبَ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَن يَسَرَ عَلَىٰ مُغْسِرٍ، يَسَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَن سَرَ مُسْلِمًا، سَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنَىٰ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنَىٰ أَخِيهِ)). (رواه مسلم).

لقد زاد البلاء من فهمي لأسماء الله تعالى: الرحمن، الرحيم.. لأنني محبتي لله على فهم معمق لأسمائه وصفاته سبحانه.

خلاصة هذه المحطة:

ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء..
وحينئذٍ: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُسِيكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2..]

لاتكتئب

ما زلنا نتأمل أسماء ربنا وصفاته لنحبه حباً لا يتزعزع.. تعالىوا
اليوم نتأمل مغفرة الله، وعفو الله، وتوبة الله على عباده.

أحياناً نمر بظروف صعبة، فنتذكر قول الله سبحانه وتعالى:
﴿وَمَا أَصَبْتُكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشوري: 30].. نفتش في أعمالنا فنرى أننا أخطأنا في حق الله كثيراً..
نندم حينئذ.. وهذا الندم أمر مطلوب حتى يدفعنا إلى التوبة الجادة. هذا الندم ينبغي أن يكون إحساساً مؤقتاً يدفعنا فوراً إلى إصلاح أخطائنا بإيجابية وحسن ظن بالله أنه سيعيننا ويقبل منا توبتنا ويعطينا فرصة أخرى لتصويب أوضاعنا..

لكن أحياناً تسير الأمور مع الواحد منا بطريقة مختلفة!
فبدلاً من هذه الإيجابية وحسن الظن بالله يتجمد عند مرحلة الندم واجترار الذكريات وجلد الذات ومقت النفس! فتفسد نفسه وتتکدر. ويبدأ يشعر بأن هذا البلاء عقوبة محضة لا رحمة فيها، قاصمة الظهر التي ليس بعدها قائمة! لأن الله تعالى بعد ما أعطاها فرضاً في الماضي فلم يستغلها، قد مقتها وسخط عليه ولن يعطيه فرصة أخرى!

ثم.. يتسرب إليه الشعور بالجفوة بينه وبين ربه سبحانه وتعالى! يحس بأن الباب قد أغلق والدعاء قد رد والشقاوة قد ضربت عليه ما امتدت به الحياة!

أخي، أخي.. احذري هذه مكيدة من الشيطان، بل هي من أخطر مكايده! فهو يجعلك تتوهם في البداية أن لوم نفسك بهذا الشكل مطلوب لأنك اعتراف بالذنب.. لكن الشيطان أوقفك عند مرحلة اللوم والندم وجعلك تبالغ فيها ليقودك إلى توهם شيء خطير للغاية! تتوهם قسوة القدر ومن قدره سبحانه! وفي هذه اللحظة من سوء الظن ستتحس بالضياع المخيف!

أنت عندما يشتد بلاؤك تشكو بثأرك وحزنك إلى الله.. عندما تنقطع بك السبل وتغلق دونك الأبواب، فإنك لا تجد ملجاً ولا منجى إلا إلى الله. فإذا قنطك الشيطان من رحمة الله وأوهكم أن بلاءك عقوبة محضة ومقت من الله، فإلى أين تفر؟ وإلى من تلتجئ؟ وإلى من تتضرع؟ ومن ترجو؟ ستتحس بالضياع المخيف.. وهذا ما يريد الشيطان لك! طرد من رحمة الله فلا يحب أن يرى مرحومين أو طامعين في رحمة الله!

أخي، أخي، لاحظ أن الشيطان لن يأتيك من باب التشكيك في مغفرة الله هكذا مباشرة.. لن يقول لك: الله ليس غفوراً

رحيمًا.. فهذه محاولة فاشلة بوضوح. لكنه سيأتيك من باب آخر! سيقول لك: (الله غفور، لكنك لا تستحق مغفرته لأنك أعطاك فرضا في الماضي ولم تستغلها. الله تواب، لكن أنت طبعتك سيئة غير مؤهلة للإصلاح. الله عفو.. لكن أنت أفشل من أن تفعل ما تستحق به عفوه)!

ماذا يريد الشيطان من هذا؟ يريد أن يوقعك في الاكتئاب! الاكتئاب الذي يشل إرادتك عن إصلاح وضعك والعودة إلى ربك؟ هناك مصطلحات علمية توصف بها أعراض الاكتئاب المرضي تجدها مثبتة حتى في المراجع الأجنبية.

منها الشعور العميق بالحزن وشعور مبالغ فيه بالذنب (exaggerated sense of guilt)، وانعدام القيمة (worthlessness)، وفقدان الدافعية (lack of motivation).

الشيطان يجذبك عند مرحلة الإحساس بالذنب ويجعل التفكير بالذنب يسيطر عليك بطريقة وسواسية، ويُشعرك أنك عديم القيمة غير قابل للإصلاح، غير قابل لأن تكون من عباد الله الصالحين.. ليشل إرادتك للطاعة وداعيتك للتغيير وهجر المعصية، ولتفقد السعادة والفرح بربك ومولاك سبحانه وتعالى. فهو لا يريد لك أن تحب ربك!

إخواني، إن الولد الذي يعاقبه أبوه يحب أباه إذا علم أن هذه عقوبة دافعها محبة أبيه له وحرصه على مصلحته، أما إن ظن أن أباه يعاقبه بداع الكراهة، فإن قلبه سيقسو تجاه أبيه.

ولله المثل الأعلى.. لا تسمح للشعور بأن البلاء عقوبة محضة، لا تسمح له أن يغزو قلبك. بل استحضر صورة الأب الذي يفرك أذن ولده المخطئ فإذا طأطاً الولد رأسه ضمه أبوه إلى صدره وأغدق عليه من حنانه.. والله المثل الأعلى.

فاعتزم بجعل حسن الخلق بالله التواب العفو الغفور.. إنه تعالى أرحم من أن يتريص بذنب عباده المؤمنين فيبطش بهم ويخرجهم من رحمته ويحرمهم فرصة أخرى.. في الحديث الذي رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه عزوجل قال: ((أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب. فقال: أي رب اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً. فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً. فعلم أن له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب .. اعمل ما شئت فقد غرفت لك))).

طبعاً لا يوحى الله تعالى إلى عبدٍ أن أذنب وسأغفر لك. بل معنى الحديث أنه قد سبق في مشيئة الله أن العبد مهما عمل، إن كان في كل مرة يتوب بصدق ويعلم على عدم فعل المعصية فإن الله تواب وسيبقى يتوب عليه، غفور، سيفر له، عفو، سيعفو عنه.. وهو يعلم سبحانه أن هذا العبد التائب سيذنب في المستقبل.

أخي، لا تقنط من رحمة الله أن يعينك على التقرب إليه والتمتع بالحظوة عنده.

إذا جاءك الشيطان فقال لك: أنت لا تستحق رحمة الله. فقل: نعم، أنا لا أستحقها لكنه تعالى سيرحمني لأنه أكرم من أن يعامل عباده بما يستحقونه! إن قال لك الشيطان: لن يعطيك الله فرصة أخرى فقد نجاك من قبل ولم تحفظ المعرفة.. فقل: بل، سيعطيني وأطعم أن ينجيني، فهو العفو الغفور. إذا قال لك الشيطان: إن الله يبتليك عقوبة لأنك يكرهك فقل له: بل يبتلييني ليظهرني ويربيني. إذا قال لك الشيطان: أنت أحاط من أن تستأهل رحمة الله، فقل له: رحمة الله أوسع من تضيق عنى ولا تشملني.

العبد الفقير لرحمة الله، والذي يكتب لكم هذه السطور.. تفكر أثناء أسره في ماضيه وأيقن أنه قصر في حق الله كثيراً.. كان الله سبحانه وتعالى قد أعطاه فرضاً وابتلاه ابتلاءات أخف ليصحو من سهوته، خاصة فيما يتعلق بترتيب الأولويات في حياته وأعمال

القلوب.. لكن هذا العبد الضعيف عاد بعد النجاة إلى الأخطاء ذاتها، فجاءه بلاءً أشد. ندم وتألم وخاف من أن هذه العقوبة ستطول وتشتد ولربما تتجاوز استطاعته وتحمله، فزاد هذا من ألمه وندمه. وبدأ شعور سلبي يدبُّ إلى قلبه ..

ثم شاء الله تعالى أن أقرأ حديثاً عظيماً قرأته من قبل، لكنه هذه المرة جاء حبل نجاة من الله وب霖ساً لجرافي! الحديث رواه مسلم، وفيه أن الله عز وجل يُشفع بعض خلقه في إخراج أناس من النار الخير فيهم قليل جداً. ومع ذلك، رحمة الله ستشمل من هم دونهم أيضاً! فيقول الله عز وجل: ((شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيَقِبْضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيْهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ)) .. سبحان الله! يخرج ربنا سبحانه وتعالى أناساً بعدهما طهرهم بالنار ويدخلهم الجنة برحمته لا بأعمالهم.

هذا الموضع من الحديث كياني وأيقظني ونجاني من الاكتئاب الذي كان الشيطان يحاول إيقاعي فيه! قلت لنفسي: (نعم أخطأ.. لكن أحسب أن الله جعلني خيراً من هؤلاء الذين أخرجهم. فإن كانت رحمة الله شملتهم فستشملني في الدنيا والآخرة).

فانقذت في قلبي دفعة كبيرة من محبة الله والاطمئنان إلى رحمته، وعلمتُ أن الصوت الذي ظننته من النفس اللوامة كان صوت الشيطان! تسرب إلى من هذا الباب: باب محاسبة النفس! فتجاوزَ بي محاسبة النفس المحمودة إلى الإحباط المذوم.

إخواني وأخواتي ..

الله تعالى أرحم بكثير مما قد يهجر لنا الشيطان في لحظات اليأس ..
﴿قُلْ يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الْذُنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53] ..

وبهذا زاد البلاء من فهمي لأسماء الله تعالى: التواب، العفو، الغفور.. لأنني محبتي لله على فهم معمق لأسمائه وصفاته سبحانه.

خلاصة هذه المحطة:

لا تدع الشيطان يوقعك في الاكتئاب ..
بل حول ندمك
إلى قوة إيجابية للتقرب من الله التواب العفو الغفور.

الله لطيف بعباده

لا زلنا نبني محبتنا لله على أساس لا تتأثر بالمتغيرات، أولها
تأمل أسماء الله تعالى وصفاته، وقلنا أنك بهذا التأمل تحول البلاء
إلى سبب لحبة الله بدلاً من أن يزعزع البلاء هذه المحبة.
تأملنا حكمه الله وتودده وإعانته ورحمته ومغفرته.. في هذه
المحطة تتأمل لطف رِبِّنا اللطيف سبحانه.

قال ربنا عز وجل: ﴿الَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: 19] .. مهما
اشتد بلاؤك فلا بد أن ترى من ربك تعالى لطفاً فيه إن أحست
الظن به تعالى، بل وكلما أحست التعامل مع بلائك زادت فيه
مظاهر اللطف وتعمق لديك فهم لطفه سبحانه.

تأمل لطف الله بنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم في
أشد لحظات حياته حراجةً وإيلاماً.. عندما عاد من الطائف وقد
سخر منه ساداتها ورماه بالحجارة سفهاؤها، وهو الآن في طريق
العودة إلى مكة حيث تنتظره الشماتة والتكذيب والتضييق، وقد
ماتت الوفية العطوف خديجة رضي الله عنها، وعمه أبو طالب
الذي كان يحمي النبي ويغديه بنفسه وأولاده.. وزاد الألم أنَّ
أبا طالب مات كافراً. لم يعد لرسول الله في مكة مأوى ولا منعة..

وكان هذا كله بعد عشر سنوات منبعثة، أصحابه فيها يذبون ويشردون ويقتلون، ولا يدرى النبي صلى الله عليه وسلم كم ستمتد هذه المعاناة..

كانت ساعات العودة من الطائف هذه أشق محطة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. وصفها النبي بقوله **لأَمْنًا عَائِشَةَ** في الحديث المتفق عليه: ((فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الشعالي)). قرن الشعالي منطقة تبعد حوالي 35 كيلومترا عن الطائف.. سار النبي هذه المسافة في حر الشمس ووحشة الصحراء دون أن يشعر بها من شدة الهم!

ومع ذلك.. يأتي لطف الله تعالى ليخفف عن رسوله صلى الله عليه وسلم في أشد اللحظات حرارة.. في هذه اللحظة كان الله تعالى وضع الكفار جميعاً في قفص الاتهام، وأعطى رسوله مطلق الحرية في القضاء لينفذ فيهم الحكم الذي يشاء.. وفي تتمة الحديث المتفق عليه الذي ذكرناه قال عليه الصلاة والسلام: ((فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملوك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن

الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني رب إليك
لتتأمرني بأمرك. فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين)).

سبحان الله! نفس النبي كسيرة بما لقي من أهل مكة
والطائف، وقد ماه لا زالتا تدميان.. فيجعل الله تعالى حبيبه بهذا
العرض في مقام الحاكم نافذ الأمر، بينما الكفار جمِيعاً كأنهم قيدوا
باليأس أذلة صاغرين.

ملَكان ينتظران كلمة من شفتي النبي تنهي المعاناة وتشفي
الصدر وتذهب غيط القلب.. انظركم هو محمد صلى الله عليه
وسلم كريم القدر عند ربه سبحانه! أليس هذا لطفاً عظيماً من
الله بحبيبه؟ عندما يرى رسول الله قدره عند ربه ومحبة ربه له
وغضبه من أجله.

فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال للملائكة
-بمنتهى السمو الإنساني والعظمة البشرية-: ((بل أرجو أن يخرج
الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)) (متفق
عليه). بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم.

أليس هذا لطفاً عظيماً من الله بنبيه؟!.. أن يسلمه زمام
الأمر ويجعله صاحب القرار.. ثم النبي من نفسه يختار الصبر على

أذاهم، لا عن عجز، بل عن عظمة ورحمة. فبدل أن يشعر النبي بالقهر وانعدام الحيلة تجاه هؤلاء المعاندين، يصبح كالآب الذي اختار هو بنفسه الصبر على هؤلاء الأولاد العاقلين.

عندما تبتلى تأمل كيف أن بلاءك كان من الممكن أن يأتي أشد،
ثم تأمل وجوه لطف الله تعالى بك.

في بلاء مررت به جعلتأتأمل وجوه اللطف.. استخرجت ورقة وقلماً وكتبت قائمة بعنوان: (أمور خفت البلاء). وصلت فيها إلى 37 أمراً خفف الله بها هذا البلاء! ثم أضفت كثيراً غيرها بعدها. وأنا أنصح كل مُبتلىً أن يفعل مثل ذلك، ولينظر إلى أثرها في نفسه.

يخفف الله عنك باللقاء برجل ابْتُلي قبلك فصبر، ببسملة تراها على وجه أخيك، برعاية الله لعيالك ومن يهمك شأنهم، بمحبة أناس بلاء ومساندتهم لك، بكتاب تقرأه، بذكرى جميلة، بأمل في الفرج ينبعث في قلبك، بصورة جميلة للمستقبل ترسم في ذهنك، بتوسيع الله لك في جانب آخر من حياتك غير الجانب الذي ضاق عليك، بتعریضك قبل البلاء الكبير لبلاء أصغر يمرنك ويعودك على الصبر، بكشف الله قبح ظالمك.. وغيرها الكثير.

ومن لطائف اللطف الرياني أنك تكون في بلاء تضيق به ثم يأتيك بلاء آخر جديد ينفص عليك ويزيد همك أكثر فأكثر.. فإذا فرج الله هذا الهم الجديد انسرح صدرك وهان عليك بلاؤك الأصلي!

ومن لطائف اللطف الرياني تلك الرؤى الطيبة المصبرة التي رأيت من نفسي ومن كثيرين حولي مذاقها الجميل وكم صبرت من مبتلى وهدأت نفسه..

قد تقول في نفسك.. لكن هناك بلايا لا نرى فيها لطفاً.. فلما ذكر اللطف فيما يحصل مع مسلمين في بلدان مختلفة يذوبون وتنتهي حرماتهم ويُقتلون بأساليب بشعة؟!

فالجواب: بل أعظم مظاهر اللطف نراها في بلائهم! ألا وهو تثبيتهم على الإيمان في لحظات تعذيبهم وقتلهم، بدلاً من موتهم على معصية. إنسان على وشك مفارقة الدنيا والرحيل إلى ربه.. مثل هذا لا يحتاج تخفيف البلاء، بل مضاعفته ليتضاعف الأجر، لأنه على وشك انقطاع العمل وطي كتاب الحسنات والسيئات. وعامة إخواننا هؤلاء من خلط من قبل عملاً صالحًا وأخر سيئاً بحالتنا، وممن تراوح إيمانه بين نشاط وفتور.. فأي لطف أعظم من أن يعصمه الله من شؤم سيئاته ويقذف في قلبه إيماناً ينطقه

بـالـشـهـادـتـيـن وـبـعـبـارـات التـفـويـض إـلـى الله (ما لـنـا غـيرـك يـا الله) بـيـنـما
كـثـيرـغـيرـه يـمـوت فـي بـيـتـه وـقـصـرـه مـيـتـة سـوـء وـلـا يـوـفق لـلنـطـق بـهـمـا؟!

روى أبو نعيم في حلية الأولياء أن عمر بن عبد العزيز قال: (ما
أحِبْ أَنْ تُهَوَّنَ عَلَيَّ سَكَرَاتُ الْمَوْتِ لَأَنَّهَا آخِرُ مَا يُكَفَّرُ بِهِ عَنِ
الْمُسْلِمِ).

خلاصة هذه المدحطة:

مهما اشتـدـ الـبـلـاءـ، سـتـرـيـ أـشـكـالـاـ منـ لـطـفـ اللهـ فـيـهـ .. فـتـأـملـهاـ،
وـسـيـتـعـمـقـ حـيـنـئـ فـهـمـكـ لـاسـمـ اللهـ (الـلـطـيفـ)،
فـتـعـيـدـ بـنـاءـ حـبـهـ سـبـحـانـهـ عـلـىـ أـسـسـ سـلـيمـةـ.

اشكر الذي ستر عيوبك عنهم !

نتحدث في هذه المحطة عن ستر الله على عباده.. صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنَّ اللَّهَ حَسِيرٌ)).

قد تبتلى، فَيَتَعَاطِفُ النَّاسُ مَعَكَ وَيَدْافِعُونَ عَنْكَ وَيَذْكُرُونَ أَفْضَلَ صَفَاتِكَ وَيَثْنُونَ عَلَيْكَ ثَنَاءً عَطِيرًا..
حِينَئِذٍ، إِيَاكَ أَنْ تَغْتَرِ بِنَفْسِكَ! بَلْ تَذَكَّرُ أَنْ هَذَا كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ الْجَمِيلَ وَسْتَرَ الْقَبِحَ. فَلَوْ أَظْهَرَ أَقْبَحَ مَا عَنْكَ فَلَعْلَهُمْ انْفَضُوا عَنْكَ وَقَالُوا عَنْكَ: (إِنَّمَا ابْتُلِي بِسُوءِ أَعْمَالِهِ) .. وَتَصُورُ كُمْ سَيَكُونُ مُؤْلِمًا أَنْ تَسْمَعَ هَذِهِ الْكَلْمَةَ وَكُمْ سَتَزِيدُ هَمَكَ!

ليُسَّ هذا الكلام للعصاة فقط، فليُسَّ منا أحد في قلبه حياة إلا ويعلم من نفسه أشياء يحب أن يسترها الله تعالى. فـ((كل بني آدم خطاء)). فتش في نفسك:

- إن لم تكن تُسر معصية الآن فقد عصيت الله في ماضيك ولا بد، وكان من الممكن أن يطلع عباد الله على ذلك فتهتز صورتك في عيونهم بعد أن أحبوك، ولكن الله سترك.

- بل قد تكون تساهلت في تناقل ما ينسب إلى أخيك المسلم من نقية مفترأة عليه وتقول: العهدة على الراوي! فتسبب في أن يشيع عنه ما ليس فيه مع أن الله سترك على ما فيك!

- إن لم تكن معصية فتقصير في طاعة، خاصة إن كان الناس ينظرون إليك على أنك قدوة.

- أو نقطة ضعف في شخصيتك يمكن أن يفرح بها خصومك، لكن الله سترها عليك.

- وكم من مواقف قد لا تكون فيها معصية لكن يمكن أن يساء تفسيرها فيسوء ظن الناس بك، لكن الله سترك.

- وكم من مرض قلبٍ عندك وأفكار لا تحب أن يطلع عليها الناس إذ تهز صورتك لديهم، لكن الله سترك.

- أعود فأقول: يعرف هذا من نفسه كل من في قلبه حياة. فإن كنت لا ترى ستر الله عليك فهذه دلاله خطيرة أن قلبك قد قسا وما عاد يرى فضل الله بالستر عليك.. دلاله أن المعصية هانت عليك لهوان حق الله عندك.. ومما هونها أن الله لم يفضحك بها. فلو أطلع الناس عليها ورأيت نفورهم عنك وسقوطك من عينهم

حينئذٍ لندمت عليها وعظمت في عينك. لكن لم يطلع عليها
إلا الله، وهان عندك حق الله، فهانت عليك معصيتك!

نَبَّهُنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى السِّرِّ الَّذِي قَدْ يُكَشِّفُ مِنْ حِيثِ
لَا نَحْتَسِبُ فَقَالَ: ((يَا مَعْشِرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَفْضُّلِ الإِيمَانَ
إِلَى قَلْبِهِ! لَا تَؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَبَعُوا عُورَاتِهِمْ؛ فَإِنَّمَا مَنْ تَتَبَعُ
عُورَةً أَخِيهِ الْمُسْلِمَ؛ تَتَبَعُ اللَّهَ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَعُ اللَّهَ عَوْرَتَهُ؛
يُفْضِّلُهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ)) (صَحَّحَهُ الأَبْيَانِ).

فَكُرْ وَتَذَكَّرْ وَتَدَبَّرْ.. كُمْ مَرَّةٍ سَتَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى؟ لَتَحِبَّ رِبَّكَ
السَّتِيرَ سَبَحَانَهُ.

عِنْدَمَا تَكُونُ فِي جَنَازَةٍ فَتَسْمَعُ ثَنَاءَ النَّاسِ عَلَى الْمَيِّتِ تَصُورُكَمْ
مَرَّةٍ يَعْصِيُ الْإِنْسَانُ رِبَّهُ فِي مَدَةِ حَيَاتِهِ.. سَتِينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً، ثُمَّ
عِنْدَ الْمَوْتِ يَذْكُرُهُ النَّاسُ بِخَيْرٍ وَيُسْتَرِهُ اللَّهُ.

بَلْ انْظُرْ إِلَى تَوَاصِلِ سَتْرِ اللَّهِ عَلَى عَبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..
فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ: ((إِنَّ اللَّهَ يَدْنِي الْمُؤْمِنَ -أَيِّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ- فَيُضْعَفُ عَلَيْهِ كَنْفُهُ
وَيُسْتَرِهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرَفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرَفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ
أَيُّ رَبْ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذَنْوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ،

قال : سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطي كتاب حسناته...).

تصور ! .. معاصر سترها الله في الدنيا فلم يعلم بها إلا الله ثم أصحابها والحفظة من الملائكة، ثم سترها الله بعد وفاة أصحابها ثم سترها يوم القيمة فدفنت وكأنها ما كانت ، ولا يُظهر الله إلا محاسن أصحابها فيعطي كتاب حسناته فينطلق ويقول : ﴿هَآؤُمْ أَقْرَءُوا كِتَابِيَّة﴾ [الحقة: 19] .. كيف أيها العبد لو لم يسترها الله ؟
أكنت تقول للعالمين هاؤم أقرؤوا كتابيه ؟

بل قد تعمل عملاً لله تعالى تُسر به لئلا يدخل قلبك الرياء ..
فيقبله ربك عز وجل ، ثم يُظهر هذا العمل على يد أعدائك فيزيد
محبتك في قلوب الناس ويرفع قدرك عندهم أنك أسررت به ،
ويعود عدوك خاسئاً مدحوراً .

إذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

فاشكر الله الذي فعل هذا بحسناتك ولم يفعله بمعاصيك
وسيئاتك ! وإن أثني عليك المثنون .. وأنثني على صبرك على
بلائق .. فتذكر على الفور أن تشكر الله الذي سترك ، وتصور لو أن

للمعاشي صغيرها وكبیرها رائحة تفوح أو عالمة تظهر على جبهتك
كيف سيكون الحال؟!

وتذكر قول أبي محمد الأندلسي القحطاني مخاطبًا رب العزة
عزو جل:

وهدىتنى لشراع الإيمان
وهدىتنى من حيرة الخذلان
والعطف منك برحمه وحنان
وسترت عن أبصارهم عصياني
لأبي السلام علي من يلقاني
ولبؤت بعد كرامه بهوان
وحلمت عن سقطي وعن طغياني
بخواطري وجوارحي ولسانى

أنت الذي صورتني وخلقتنى
أنت الذي آويتني وحبوتني
وزرعت لي بين القلوب مودةً
ونشرت لي في العالمين محسناً
والله لوعلموا قبیح سريري
ولا عرضا عني وملوا صحبتي
لكن سترت معايي ومثالبي
فلَكَ الْمَحَامِدُ وَالْمَدَائِحُ كلها

ختاماً، عرفانا لله تعالى بالجميل أن سترك، وحتى يستمر ستره
عليك.. استر على عباد الله.. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:
((ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة)) (رواه مسلم)، وقال:
((من غسل ميتا فكتم عليه غفر الله له أربعين مرة)) (صححه
الألباني وقال ابن حجر: حسن غريب). يعني قد ترى من الميت شيئاً يسwoه
لو كان حياً أن يطلع عليه الناس.. علامات سوء خاتمة، مرض،
آثار وشم قبل الالتزام، حتى على مستوى قلة عناء

بنظافة ملابسه أو جسده .. سترك الله فاستر على عباد الله .
وكلما دعك نفسك إلى الحديث عن عيوب الناس فتذكري ستر الله
عليك .

خلاصة هذه المحطة:

تأمل ستر الله عليك في بلائق
وكيف أنه لو أظهر ما ستر لشمت فيك من شمت
وانقض عنك بعض من يتعاطف معك .
 وإن أثني الناس عليك أو على صبرك ،
فتوجه بالحمد إلى ربك الستير .

يائس.. مستوحش.. قلق.. خائف

أحبتي الكرام..

تصوروا معي حوارا يدور بين صديقين: زياد ورائد..

زياد: سمعت يا رائد أنك مقرب من شخص مهم.

رائد: صحيح، إنه ثري وذو نفوذ، لا تستعصي عليه مشكلة.

زياد: وما علاقتك به

رائد: إنه صديقي! على استعداد أن يقف معي في أية مشكلة.

يؤكد علي دائمًا ألا أطلب المساعدة من غيره.

ثم بعد أيام من هذا الحوار:

رائد: آآآآآاه يا زياد.. أنا قلق!

-من ماذا؟

-وقعت في مشكلة من مدة، وببدأ صبري ينفد. أحس بالخوف من المستقبل، أحس بالوحشة، بالضياع، أحس بالضعف وأنا أقف وحدي أمام هذه المشكلة.

-عجب أمرك يا رائد!

-ما العجيب في الأمر؟

-ألم تخبرني عن علاقتك بالرجل الشري ذي النفوذ المستعد لحل مشاكلك كلها!

-بلـ

-هل ما زلت على علاقة به؟

-طبعاً.. إنه صديقي الحميم وينتظر مني طلباً.

-زياد: أعدرك يا رائد.. أنت متناقض! هناك خطأ في كلامك. فإذا ما أن صديقك هذا ضعيف محدود القدرات، أو أنك تدعى صداقته تفاحراً ولست على علاقة به أصلاً..

أخي.. أخي.. أليس زياد على حق؟ أليس رائد متناقض في دعوه؟
قبل أن تتحامل على رائد.. انتبه.. أخشى أن تكون مثله!

ألسنا نعلن أننا نؤمن بالله وأننا نعبدـه، فنقرأ في صلاتنا في اليوم الواحد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ سبع عشرة مرة على الأقل ونستعين به فنقرأ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ سبعة عشرة مرة، ونعتقد أن الله تعالى معنا ونتوكل عليه فنقول: (بسم الله توكلت على الله)، ونردد كثيراً: (حسبي الله ونعم الوكيل) ونعلن أننا مسلمون قد أسلمنا أمرنا لله تعالى فردد إذا أؤينا إلى فُرشنا - كما علمنا رسول الله - : (اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري

إِلَيْكَ وَالْجَأْتُ ظَهْرِيٌ إِلَيْكَ (رواه البخاري)، ونردد صباح مساء:
«رضيت بالله ربّا»، أي خالقاً رازقاً مدبراً لأمورنا؟

هل نعني ما نقول؟ هل نحن بالفعل مؤمنون بالله تعالى
مسلمون أنفسنا وأمورنا إليه عابدون له مستعينون به متوكلون
عليه راضون به مفوضون أمرنا إليه ملحوظون ظهورنا إليه؟

إذن..

فالله تعالى يقول: «وَاللَّهُ وَلِيُ الْمُؤْمِنِينَ» [آل عمران: 68].. ويقول
سبحانه: «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُكُمْ يَعْمَلُ الْمُوْلَى وَيَعْلَمُ التَّصِيرُ» [الأنفال: 40].. ويقول: «وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» [آل عمران: 139]..

ويقول: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُ» [الزمر: 36].. (قراءة عشرية صحيحة)
ويقول: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ» [الطلاق: 3]..

ويقول: «وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكِمْ أَعْمَالَكُمْ» [محمد: 35]..

ويقول: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» [آل عمران: 153]..

فكيف يسمح أحدهنا لنفسه بعد هذا كله أن يحس بالخوف الشديد عند تعرضه لمشكلة؟! كيف يسمح لنفسه أن يحس بالضياع والقلق والوحشة وبأنه وحده أمام المشكلة؟! بل كيف يسمح لنفسه أن يبوج بهذه الأحساس أمام الناس؟ أين إيماننا

بالله وإسلام أمرنا له واستعانتنا به وتوكلنا عليه واستشعار معيته؟ ألا نستحي من الله بعد ذلك أن نشكوا الوحدة والضياع والضعف والقلق من المستقبل؟! ألسنا حينئذ متناقضين مع أنفسنا؟

إنه ليس لتناقضنا هذا تفسير إلا واحد من ثلاثة :

1. إما إن ادعاءنا الإيمان والتسليم والتوكيل والاستعانة ادعاء باطل، مع أننا نكرره في اليوم عشرات المرات! وحينئذ فيخشى أن نكون كمن قال الله فيهم ﴿يَقُولُونَ بِاللَّسْتَهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: 11] ..

2. أو أننا توكلنا على الله فخذلنا واستعنا به فتركنا وأسلمنا أمرنا إليه فضيعنا.. تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا ! فهو القائل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3] .. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122] .. ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدُهُ وَلَا كَيْنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6] ..

3. والتفسير الثالث للتناقض أن هذا الشاكِي المدعى التوكيل كأنه يقول: (لم يكفي الله، فهو معي لكنني أحس بالضياع)! وكأنه ينسب الضعف إلى ربه! تعالى الله عن ذلك.

فأي تفسير تختار أيها "المتوكل" الشاكِي؟

أحبتي في الله، دعونا نعرف عظمة الرب الذي نعبده ونستعين به :
 - إنه العظيم العزيز الجبار المهيمن القوي المتين القاهر المسيطر
 وهو على كل شيء قادر.. فعيّب أن نشكوا الضعف وهو معنا !
 - إنه الرحمن الرحيم الودود البر الشكور اللطيف الحليم القريب ..
 فعيّب أن نشكوا الوحشة وهو معنا !
 - إنه السميع البصير السلام مجيب الدعاء.. فعيّب أن نشكوا
 القلق وهو معنا !

إنه الله ! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36] .. بلى والله.

فما فائدة إيماننا بأسماء الله وصفاته إن كان هذا الإيمان
 لا يسكن روعنا ويربط على قلوبنا في البلایا والمحن ؟
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي
 بالله رياً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولًا) (رواہ مسلم). فمن رضي
 بالله رياً يدبر أمره ويرعى شأنه فسيذوق طعم الإيمان وسکینته
 واطمئنانه. ومن وجد بدلاً من ذلك الجزع والفرغ فلم يذق طعم
 الإيمان، ولينظر حينئذ في صدق رضاه بالله رياً !

إنه الله لا يخذل من توكل عليه ..
 إنما نحن الذين قد لا نحسن التوكل.

أخي المبتلى .. لا تشكُ اللهَ إِلَى الْخَلْقِ أَرْجُوكَ ! فَلَيْسُوا ارْحَمُ بِكَ
مِنَ اللَّهِ .. لَا تشكُ اللهَ إِلَى الْخَلْقِ أَرْجُوكَ ! لَئِلَّا تَشْمَتْ بِنَا الْأَعْدَاءُ
الَّذِينَ سِيَقُولُونَ حِينَهَا : أَيْنَ مَعْوِنَةُ رِبِّكُمُ الَّتِي زَعَمْتُمْ . كَمَا قَالَ
أَسْلَافُهُمْ فِيمَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ : «غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ» [الأنفال: 49] ، فَرَدَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [الأنفال: 49] ..

كَلَمَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْكُوَ الصُّبَاعَ وَالتَّوْجُسَ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ وَالْيَأسِ
وَالْقُنُوطِ وَنَفَادِ الصَّبَرِ ، تَصُورْ أَنَّهُ يَجْلِسُ بِجَانِبِكَ مَلِحْدٌ يَسْمَعُ مَا
تَقُولُ ! مَاذَا سِيَقُولُ لَكَ إِذَا سَمِعَ شَكْوَكَ ؟ (أَلَمْ تَكُنْ تَنْصُحُنِي أَيْهَا
الْمُسْلِمَ أَنْ أَوْمَنَ بِوْجُودِ رَبِّ خَلْقِنَا وَيَرْزُقْنَا وَأَنْ أَعْبُدَهُ وَأَسْتَمدَ الْعُوَنَّ
مِنْهُ لَأَشْعُرَ بِالْطَّمَائِنَةِ وَخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؟ لَا أَرَى مِنْ ذَلِكَ
شَيْئًا ! بَلْ أَرَاكَ كَأَنَّكَ تَقُولُ : أَمْرِي بِيْدِ اللَّهِ ، فَأَنَا إِلَآنَ قَلْقَ) !

ضَمِنْ هَذِهِ الْمَعْانِي صُفْغَتْ فِي خَضْمِ بَلَاءٍ مَرْتُ بِهِ قَصِيدَةً بِعِنْوَانِ:
(بِحُبِّ اللَّهِ أَتَصْبِرُ) كَانَ لَهَا أَثْرٌ يَأْذِنُ اللَّهُ فِي تَثْبِيْتِي وَانْشِرَاحِ صَدْرِي
إِلَى أَنْ أَذِنَ اللَّهُ بِانْجِلَاءِ الْبَلَاءِ .. تَجَدُّهَا أَخِي / أَخْتِي فِي الصَّفَحَاتِ
الْقَادِمَةِ .. فَتَأْمُلُهَا وَتَشْرُبُ مَعْانِيهَا .. نَفْعَنَا اللَّهُ بِهَا .

بِحَبِّ اللَّهِ أَتَصْبِرُ

وَخَبَا الرَّجَاءُ فِي أَسْأَهُ مُسْتَحْكُمْ
قَلْقٌ شَدِيدٌ الْغَمْ صَدْرِيْ مَظْلُمْ
جَارِيْ جَيْرُولَا صَدِيقٌ يَرْحَمْ
فَأَسْـيَـرْ تَلْفُـنـي الرَّمَالُ وَتَلْطُـمْ
فَإِذَا سَرَابُ الظَّنُـونـ تَوْهُـمْ
فَأَعِـشـ عَمْرِي وَالْفَـؤـادـ مُحْطَمْ

طَالَ الْبَلَاءُ فَوْجَهُهُ مُتَجَهُمْ
وَيَقُـولـ إِنِي ضَائِعٌ مُسْتَوْحِشُ
غَرْقَانَ وَهَدِيَ فِي الْهَمْمَوْمَ فَلَيْسَ لِي
صَحْرَاءُ عُسْرَيْ لَسْتُ أَبْصُرُ حَدَّهَا
إِمَّا سَعَيْتُ لَدُوْحَةً أَبْصَرْتُهَا
وَأَخَافَ أَنْ تَئِدَ الرِّزَا يَا مُنْيَتِي



فَأَجَابَ: بَلْ إِنِي حَنِيفٌ مُسْلِمٌ
إِنْ كَانَ عِنْدَكَ نَبْعُ مَاءِ زَمْزُ
أَتَقُولُ إِنِي ذَوْ افْتَقَارٍ مُعْدَمٌ
وَظَهُورُهَا مِنْ حَمْلِ مَاءِ تُقْصِمُ
مِنْكَ الشَّكَاهَ وَبَيْثَ مَا لَا تَكْظِمُ
مَا قَدْ زَعَمْتُمْ أَنْ رَبِّيْ مَعْكُمْ
سَكَنِ الْجَنَانَ رَضِيْتُمْ وَصَبَرْتُمْ
وَإِذَا تَوَكَلْتُمْ عَلَيْهِ كَفَاكُمْ
حَكْرُ عَلَيْكُمْ وَالشَّقَالِسِ وَأَكُمْ
مَتَذَمِّرِينَ بِكُمْ أَسَى وَتَشَاؤْمُ
وَظَنَنْتُمْهُ لَدِي الْبَلَاءِ سِعْصُمْ
وَالخُوفُ يَعْصُفُ وَالوَسَاوُسُ تَهْجُمُ
وَوَصَالَهَا مِنْ كُلِّ جَرِحٍ بِلَسْمٍ
شَيْءٌ يُخْيِفُ وَلَا الْهَمْمُ تُزَاحِمُ

فَسَأَلَتْهُ: أَوَأَنْتَ تُنْكِرُ رَبَّنَا؟
عَجَباً لِأَمْرِكَ هَلْ تَبِيتَ عَلَى الظَّاما
إِنْ كَانَ بِيَتْكَ بِالْجَوَاهِرِ زَاخِرًا
كَالْعِيرِ وَسَطَ الْبَيْدِ يَقْتُلُهَا الظَّاما
مَاذَا تَقُولُ لَمَلِحْدِ مَتَسْمِعٍ
فَيَقُولُ: (هَلْ يَا مُسْلِمُونَ نَسِيْتُمْ
وَبَأْنَكُمْ إِذْ مَا ذَكَرْتُمْ وَعَدَهُ
وَبَأْنَ حَبَّ اللَّهِ عَصْمَةً أَمْرِكُمْ
حَتَّى السَّكِينَةَ قَدْ زَعَمْتُمْ أَنَّهَا
مَالِيْ أَرَاكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ قُنَّطَا
قَدْ غَرَّكُمْ أَتَبَاعَ أَحْمَدَ دِينَكُمْ
أَيْنَ الْمُحَبَّةَ قَدْ زَعَمْتُمْ نَفْعَهَا
إِمَّا أَنَا فَوِدَادٌ لِيَلِيْ بِهِ جَيْتِي
عَمْرَانُ قَلْبِيْ مِنْ مَحْبَّتِهَا فَلَا

عند القياسِ بكم أعزُ وأنعمُ
إني حظيتُ براحةٍ وحرمتُمْ

إني إذن من بهجتي في حبها
لاتسألكوني أن أدين بدينكم



فمضى الرقيعُ مفاحِرًا يتهَّكَمُ
قدَّرَ الرحيمَ لدى الذي لا يرحمُ!
في راكَ بعدَ مولِيَاً تترَبَّرُ!
في راكَ تبكي للعبادِ وتتألمُ
شكواك عن سوءِ الظنونِ تترجمُ
كلا فربُ العرشِ مَنْ ذا حُكْمُ
منعَ العطایا؟ إن ربِّي أَكْرَمُ
خَلِيلَ وحْدَكَ؟ بل إلهي أحَلَمُ
لم تُكْفِ من شرّ؟ فربِّي أَعْظَمُ
في محنَةِ والمبتلى لا يعلمُ
ولربِّ أمرِيَّانْ يَؤْخَرُ أَقْوَمُ
إن نحن لم نقبلُ عليهِ سُنْحَرْمُ
ساعِ إليهِ وجُلْهمَ مَنْ يُحْجِمُ
أغضي على جرحي وناري تُضْرِمُ
أن المحبةَ عُرْوَةٌ لَا تُفْصِمُ
إني لَصَبُّ مغْرِمٌ ومتَّمِ
وإذا دعاك لنصر دينك فالدمُ
والخطب ينهشُ والرزايا تؤلمُ
أني - وربِّي حافظُ - لا أهزمُ
أجرًا إذا هم يأْلِمُونَ وتألمُ

وكانني بك قد سكتَ من الحَيَا
يا حسرتاه على العباد إذا اشتكتوا
يبلو لوثة قبل راجيَا متضرعاً
يَبْلُو ليسمعَ منك أَنَّهَ مذنبٌ
الله ربِّيَّ كيف تشكُّوضيعةَ
أتظنُّ ربِّيَّ يبتليك إذن سديَّ؟!
أو إِنْ رفعتَ يَدَ الترجُّو فضلَهُ
أو إِنْ بصدقٍ قلتَ ربِّي كُنْ معيَ
أو قلتَ حسبيَّ مَنْ عليهِ توكلَيَ
فالله أعلم كيف يزجي منحةَ
لَكَنَّ في الإنْسَانِ فرطٌ تعجلَ
لَا يخلُفُ اللهُ الْوَعْدَ وإنما
ربِّيُّ قريبُ للعبادِ فمنهمْ
كم دمعةٌ في محنَتي واريتُها
حتى أعلمَ مَنْ يراني راضِيَا
ما الحبُّ قولَك باللسانِ تكلاً
بل حبُّهُ تسليمُ نفسك بالقضايا
كم بسمةٌ وسُطِّ العدى أظهرتُها
وأري بصرِيَّ مَنْ يريدهُ شماتةً
فاصبرْ فليسوا يرتجونَ وترتبجي

إِمَّا يُعَزَّزٌ لَنْ تذوقْ مهانةً
واذكُرْ نبِيًّا مُبْتَلِي بِثَلَاثَةَ
لَهُ بَئِيْ قَدْ شَكَوْتُ وَغُمَّتِي
فَارْتَدَ بَعْدَ شَدِيدِ عَسْرٍ مَبْصَرًا
سَبْحَانَ رَبِّيْ كَيْفَ يُبْرُمُ أَمْرَهُ!
رِيَاهِ إِنِّيْ قَدْ نَشَرْتُ كِنَانَتِي
لَا ذُوْدَ عنْ حَوْضِ الشَّرِيعَةِ مِنْ عَدَا
وَأَقِيمَ فِي قَلْبِيْ لِامْسُ أَحْرَفِي
فَاكِتِبْ لِعَبْدِيْ قَدْ أَحْبَبَ صَادِقًا



أوْ إِنْ يُهِنْهَا - مَا لِنَفْسِكَ مَكْرُمٌ
وَكَذَا بِعِينِيهِ فَقَالَ يَفِّهُمْ:
إِنِّيْ عَلِمْتُ مِنَ الْذِي لَمْ تَعْلَمُوا
وَالشَّمْلُ مَجَتمِعٌ وَيُوسُفُ حَاكِمٌ
فَهُوَ الْأَطْيِفُ لِمَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ
وَحَمَلَتُ أَقْلَامِي أَصْوَغُ وَأَنْظَرَمُ
وَيُصَدَّ عَمَّا قَدْ أَرَادَ الْأَلَامُ
لِلَّهِ صَرَحَ مَحْبَبَةٌ لَا يُهِمَّ دُمْ
رَؤْيَاكَ إِذْ أَنْتَ الْأَعْزَزُ الْأَكْرَمُ

لن تضيع وسط الزحام

ألا تحب أن تستثير بصديق، بحيث تحس أنه لك، وأنك أعز الناس عليه فلن يشغل بغيرك عنك؟ ألا تحس بقيمة هذا الصديق في المآذق؟ أظنك لاحظت أن مجرد بث همومك لهذا الصديق المتفهم لك والحريرص عليك يشعرك بالراحة وتنفيس الهم.

قلت لأخي الأكبر مررة: هل معك ربع ساعة لأكلمك في مشكلة؟
فأجاب: (أنا كُلّي لك) ! غمرتني هذه الكلمات وأensiت بها.

هكذا نحن.. نحب أن نستثير بمن يفهمنا ويعيش معنا آلامنا وأمالنا.. مجرد وجوده مصدر طمأنينة لنا.. فكيف إذا كان قادرًا على حل مشكلاتنا؟! كم ستستقر نفوسنا حينئذ..

في المقابل، قد تحس بالضياع عندما يزاحمك على هذا الصديق آخرؤن.. تخشى أن يشغلوه عنك. قد يعرف هذا الشعور من له إخوة كثيرون يزاحمونه على أبٍ واحد، من لها ضرة تزاحمها على زوج واحد، من له زملاء يزاحمونه على معلم واحد.. لم يعد

الأب أو الزوج أو المعلم لك أو لك أنت وحدك .. فقد تنسى
أو تنسين في زحمة الآخرين.

فتش نفسك!

هل تسرب إليك شعور كهذا تجاه:
ربك سبحانه وتعالى؟!

لاأسألك عن قناعاتك العقلية ، فهي تأبى ذلك ولا شك .. لكن
الإنسان قد يختزن في باطن شعوره هواجس تسبب له قلقاً فلا
يدري مصدره، ومنها هذا الهاجس .. أنك ضعت أمام الله وسط
الزحام!

إليك حقيقةً مؤنسةً مطمئنةً: الله سبحانه وتعالى مطلع
عليك، قريب منك، يعلم بهمك، ويسمع دعاءك، ويفرح بتوبتك،
ويدبر أمرك .. كل هذا كما لو كنتَ وحدك في هذا الكون لا يشركك
فيه إنس ولا جان! ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعْثَثْتُمْ
إِلَّا كَنْفُسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: 28].. قال ابن كثير:
(سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم) كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس
واحدة).

كذلك في الحديث القدسي : (يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله لم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر).

فسبحان من لا يشغله سائل عن سائل، ولا مستغيثٌ عن مستغيثٍ .. «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقُولَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفِي بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٦﴾ [الرعد: 16] .. فلا يضيع عنده أحد وسط الزحام.

لن تضيع في الزحام.. بل لك أن تتصور كما لو أنك تدعوا الله وحدك وأنه يسمعك وحدك.. وأن معاني أسماء من أسماء الله الحسنى تتجلى في ريبوبيته لك أنت كما لو كنت وحدك.. فيظهر فيك آثار رحمة الله وقربه وعفوه ولطفه وكرمه وحلمه ومغفرته وإجابتـه ووـددـه و هـدـاـيـتـه و بـرـهـ و رـأـفـتـهـ و رـزـقـهـ و كـفـاـيـتـهـ و سـتـرـهـ و رـفـقـهـ و عـطـائـهـ .. يـظـهـرـ و سـيـظـهـرـ فـيـكـ هـذـاـ كـمـاـ لـوـ كـنـتـ وـحدـكـ فـيـ هـذـاـ الكـونـ.. لـذـاـ، فـلـنـ تـضـيـعـ فـيـ الزـحـامـ.

لاحظ كيف أن الله تعالى أفرد كلمة (الداع) في قوله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186] .. ففي هذا الإفراد من الإشعار بالعنابة بدعائك أنت ما قد لا يكون في الجمع (الداعين إذا دعوني).. ليست استجابة مجملة عامة لمجموع الداعين بحيث تجزئ استجابته لأكثرهم عن الاستجابة لأفرادهم فرداً.. بل يجيب دعوتك أنت كما لو كنت وحدك، ولو دعاه تعالى معك في اللحظة نفسها ميلارات بل ما لا يحصى من الإنس والجن والملائكة.

كذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62] .. كل مضطرب على حده كما لو كان وحده.. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64] .. سبحانه فهذا شأنه: ﴿وَمَا يَغْرِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61] ..

فادع الله وارجوه وأنس به وتأمل في نفسك آثار أسمائه وصفاته واستحضر معيته كما لو كنت وحدك.. وتذكر دوماً : لن تضيع وسط الزحام.

علشاني

أم هيثم.. كانت تنسج البلوزة (الكنزة) الصوفية بيديها لابنها الذي قال لها في اتصاله الأخير: (أمي الحبيبة، لي عندك طلب: انسجي لي بلوزة صوف بيديك واطلب من أبي أن يرسلها مع صديقي عmad، فطيارته يوم الخميس بعد القاسم. أعرف أنك ستتبعين في نسجها، لكنني أريد أن أذكرك وأنا ألبسها.. سأحس أنك نسجت فيها حنانك بعطفاء بحبك يا غاليبة.. سأحس وأنا ألبسها أنك تضميني إلى صدرك.. باختصار يا حبيبتي: انسجيها.. علشاني).

أبو هيثم كان يعلق -شبه ممازح- وهو يرى زوجته منهكرة في النسج: (يعني يا سيد هيثم من قلة البلايز! تستطيع أن تشتري من عندك أحسن بلوزة بعشرين ديناراً بدل أن تتعب أمك وترهق عينيها في الليل بطلبك هذا!).

أما أم هيثم فلم تتأثر أبداً بما يقوله زوجها.. كانت كلمة هيثم: (علشاني) ترن في مسامعها.. كانت من حين إلى حين تقطع انهماكها في النسج للحظةٍ ريثما تكف دمعتها، دمعة الفرحة بتلبية طلب هيثم، أو دمعة الشوق إليه.

لقد كانت أم هيثم تنسج البلوزة باستمتاع مع أن بصرها وشينها من اليُبس في أصابعها لم يساعد لها.. لكنها كانت تستجمع قواها كلما تذكرت كلمة هيثم (علشاني)، وتقول لزوجها: (لا شيء كثير على هيثم.. مادام هيثم طلب سأصبر).

تنقلب الأعمال الشاقة متعدة عندما يكون الذي طلبها منا عزيزاً إلى قلوبنا.. وبقدر حبنا له، تزداد لذة المعاناة من أجله. فكيف إذا كان الذي طلبها منا هو: الله سبحانه وتعالى! إن الله يطلب منك أن تصبر ابتغاء وجهه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ صَرَبُوا أَبْيَاغَهُ وَجْهَ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: 22]

وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلِرِبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: 7].. قال مفسرون في معناها: أي اجعل صبرك لله ومن أجله. فهل هناك صبر كثير على الله؟!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو أنَّ رجلاً يُجرَّ على وجهه من يوم ولاده إلى يوم يموتُ هرماً في مرضاه لحقَّره يوم القيمة)). (حسنه الألباني).

تصور! لو أنك منذ ولادتك إلى يوم وفاتك في سن كبير هرماً أمضيت هذه الثمانين أو التسعين عاماً تُجر على وجهك في سبيل

الله تعالى لاحترق عملك هذا يوم القيمة ووожته لا شيء عندما تعلم عظمة رب الذي من أجله ابتليت وترى إكرامه لك على صبرك من أجله !

كلما أحسست بطول البلاء ونفاد الصبر قل: (بما أن الله تعالى طلب أن أصبر، سأصبر.. ابتغاء وجه الله. فالله تعالى أعظم محبوب، وليس شيء كثيراً على الله) .

قل لِنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا

كنت أتساءل عن مصدر الطمأنينة في هذه الآية؟ ما الذي يجعلنا نطمئن حين نعلم أنه «**لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**» [التجوية: 51]؟ تعالوا نتأمل الآية كلمةً كلمةً، ونتصور حالات افتراضية غير صحيحة ونقارنها بالواقع لنعرف الجواب:

1. فلنقف أولاً مع الكلمة (**كتب الله لنا**) : تصور أنك مأسور وتنتظر حُكْماً من قاضٍ من قضاة الأرض في جلسة سُتعقد في موعد قريب محدد، وهذا الحكم هو أنك إما أن تبقى تحت تصرف الله تعالى أو تنتقل منه إلى تصرف البشر! إما أن تبقى تحت تصرف الله بصفاته من حكمة ورحمة وعدل ولطف ورأفة وحلم، وإما أن تنتقل إلى تصرف من لا يشارك الله تعالى في صفاتـه هذه! حينئذ من حقك أن تقلق وتخاف بالفعل. أما حين تؤمن أن كل ما يصيـبك هو مما كتب (**الله**) تعالى بصفاته، وأنك تنتقل من تصرف الله إلى تصرف الله، وأن البشر الذين يظهرون وكأنهم متحكمون بك ليسوا سوى أدواتٍ لأقداره تعالى، مقهورون لحكمـه سبحانه، فـفُحـق لك حينئـذ أن تطمئـن.

2. فلنقف مع الكلمة (**كتب**): أدركت أن ما يصـيـبك هو من تصرف الله بك، لكن تصور أن هذا التصرف ليس بـقـدـرـ سابقـ! تصور لوـأنـ

الملائكة ينزلون كل يوم بمجموعة من المصائب فيرشونها على أهل الأرض فتصيب من تصيب، ومجموعة من النعم كذلك! حينئذٍ من حرقك أن تقلق وتخاف بالفعل. لكن حين تؤمن أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة (كما في الحديث الصحيح)، عالماً بما سيتوجب عنها، لأن تصرفاته بخلقه عز وجل ردود أفعال على أحداث خفيت عليه من قبل تعالى سبحانه عن ذلك، وأنه كتبها بحكمة ورحمة، فحقّ لك حينئذٍ أن تطمئن.

3. ثم لنقف مع الكلمة (**لنا**): استخدام حرف اللام في (**لنا**) مُشعر بأن هذه الأقدار هي لصالحنا، مهما بدا خلاف ذلك: (عجبًا لأمر المؤمن، إنْ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن).

4. تعالوا تتبعوا الآية: **﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾** [التوبه: 51]: **﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾**: والموالي لا يُسلِمُونَ ولهم لآعدائهم والموالي لا يرضي لوليه الذل والهوان، كما في قنوت النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه لا يذل من واليت).

5. تتمة الآية: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾**: إن آمنا بكل ما سبق فُحق لنا أن نتوكل على الله، أي نفوض له تدبير أمورنا بطمأنينة وبيقينٍ.

والله تعالى أعلم..

ماذا لو؟

ماذا لو كانت المصائب والمسرات تصيب الناس بلا تقدير، بل تدور خبط عشواء، فقد تصيبك وتترك غيرك لا لحكمة ولا لسابق علم؟

ماذا لو أن الله وكل تقدير الأقدار إلى ملائكة لا نعلم عن رحمتهم ولا حكمتهم ولا عدتهم؟

ماذا لو كانت البلايا منفكة عن الجزاء، بحيث تُبتلى وينعم غيرك، ثم تستويان في الجزاء والمصير إن استوى عملكم، وضاع صبرك على بلائك سدى؟

أسئلة غريبة، أليس كذلك؟ لكنني وجدت فيها إجابة لسؤال قديم لطالما كنت أسأله في نفسي، وهو: ما المعنى في أن يصبر الله أصحاب المصائب بأن مصابهم هذه مقدرة من قديم؟ كقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيرَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 22] **لَكِنَّا لَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَيْكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: 22]**

إذن بهذه المصائب ليست خبط عشواء، بل مقدرة قبل ظهورها، فلا داعي للأسى. والله لم يوكل أحداً -لا نعلم عنه شيئاً-

ليقدرها، بل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [الغافر: 11].. الله الذي نعلم أنه:

1. علیم يجعل في المحن منحًا من حيث لا ندري: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكُرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 216]

2. ونعلم عنه أنه ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: 19].. فيقدر ما يقدرنا علينا بلطفه.

3. ونعلم عنه أنه حكيم كما قال يوسف عليه السلام - بعد ما رأى فتوحات ربه عليه في البلاء - ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]..

4. ونعلم عن عدله وفضله إذ - كما قال يوسف عليه السلام أيضًا - ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَقَرَّ وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 90]..

إذن فعندما نسمع الآيات التي تتكلم عن القدر، والأحاديث مثل ((واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)) فلنعلم أنها تذكرنا بحقيقة أن هذه الأقدار إنما قدرها الله الذي نعلم عن علمه وحكمته ولطفه ورحمته وعدله، فلنسلم له أنفسنا بطمأنينة.

مقدمة عن النعم

لا زلنا نتأمل: كيف نحب الله تعالى بلا شروط؟ كيف تتفسن،
فلا نمنع البلاء أن يؤثر على حبنا لله فحسب، بل نحوله إلى سبب
لزيادة حبنا للله؟ كيف نبني حبنا لله على أساس سليمة لا تهتز
ولا تتأثر بالمتغيرات؟

في المحطات السابقة ركزنا على أول أساس من هذه الأسس،
وهو تأمل أسماء الله وصفاته. تأملنا بعضها، وترك لك أن تتأمل
سائر أسمائه سبحانه وصفاته..

الأساس الثاني الذي سنتأمله ونحاول اكتسابه، هو تأمل نعم
الله التي أنعم بها علينا في ماضينا وحاضرنا، لنستشعر أننا، حتى
إإن حُرمنا من بعض النعم، فقد تمعنا بنعم أخرى كثيرة لكننا
نسيناهَا، ولا زال لدينا نعم كثيرة، لكننا لا نستشعرها.

هذا الموضوع العظيم المرقق للقلوب: نعم الله.. نستعرضه في
الصفحات التالية..

حب بلا رجعة

هناك عبارات جميلة يقولها البشر لبعضهم:
(لقد غمرتني بإحسانك. لن أنسى لك جميلاً ما حييت).
(جي لك وصل مرحلة الارجعة! مهما فعلت في المستقبل سأظل
أحبك، ولن أسمح لشيء أن يزعزع محبتي لك).
(أحس بالحياة تجاه محبتك الصادقة لي واهتمامك بي! لا أستحق
منك ذلك كله! لا أملك إلا لأن أعدك بأن أكون وفيا لك ما حييت).

هذه العبارات تتردد في صدورنا، تناسب على السنننا، ترسم
على وجوهنا.. تجاه من يحسن إلينا المرة بعد المرة بغير دافع من
مصالح دنيوية، وإنما لأن مودته خالصة، ونفسه كريمة، وقلبه
كبير.

عندما نعيش هذه العبارات ونديرها على أذهاننا فإننا نحب
أنفسنا أيضاً ونحترمها! لأنه يَسُرُّنا أن تكون أوفياء، ودودين،
معترفين بالجميل، رقيق القلوب، مرهفي المشاعر.

أذكر أنني في مرة من المرات ترددت هذه العبارات في كياني تجاه
 أخي الأكبر، الذي أحسن لي طوال حياتي، وعندما وقعت في ظرف

صعب أبعدني عن عائلتي، لم يهدأ أخي بال ولم يذق طعم الراحة ونذر نفسه وسعي في كل اتجاه حتى يرفع الظلم عنِّي. كان يتضمن في سد فراغي عند أولادي. كان يأتي لزيارتي مثقلًا بالهموم، لكنه مع ذلك كان يتمالك نفسه ويتصنع الابتسامة ويختار العبارات ويستحضر الأخبار السارة ليحافظ على معنوياتي مرتفعة.

بعد إحدى زياراته لي وأنا بعيد عن عائلتي، ابتسם ابتسامة المغادرة وهو يقول لي: (دير بالك على حالي. إن شاء الله الفرج قريب).. نظرت إليه وهو يفارقني ويدهب، وبدأ ت تلك العبارات تتردد في صدري تجاه أخي: (أحبك، لقد غمرتني بإحسانك، لن أنسى لك جميلاً ما حييت، حبي لك وصل مرحلة الالارجعة! مهما فعلت في المستقبل سأظل أحبك، لا تستحق منك ذلك كله! سأكون وفي لك ما حييت).

شعرت بالسعادة والرضا عن النفس وأنا أفكر في هذه العبارات.. ثم فجأة.. أُلقي في روعي سؤال: من الأولى بعبارات بهذه؟ من الأولى بعبارات بهذه؟

أليس هو..... الله سبحانه وتعالى؟
ألم يغمرنا بإحسانه؟ ألم يثبت لنا عنایته بنا وتقريمه لنا أن جعلنا مسلمين وخطبنا بكلامه ودلنا على ذاته وعرفنا بصفاته واكتنفنا

بعطائيات في كل لحظة وأخبرنا عن جنة أعدها لنا ودلنا على سبيلها
وتحبب إلينا بكلامه ونفعه ومغفرته لزلاتنا وفرحه بتوبتنا؟

كم مرة سألت الله فأعطيك؟ كم مرة وقعت في كرب
فنجاك؟ كم سنة ستر قبائك عن الناس وأظهر لهم محسانك؟
إلى قلبكم واحد من خلقه حبك.. كم مرة نجاك من شماتة
أعدائك.. بل حتى البلاء.. لا يُسرُّك إن ارتضاك الله لجواره في دار
كرامته فأراد تطهيرك لتليق بهذه المنزلة، فبدلاً من التطهير بالنار
ابتلاك فطيبك وطهرك؟

ألا يكفي هذا كله في أن نبقى أوفياء لله ما حيينا؟ ألا تُشعرنا
هذه الرعاية والتكريم بالحياة منه سبحانه؟ هل سنبقى كلما
امتحن الله حبنا له بباء دنيوي يتزعزع هذا الحب ويتعكر صفو
مودتنا؟ هل سنبقى نفشل في الامتحان؟!

متى ستقول: يا رب! غمرتني بإحسانك، لن أنسى فضلك على ما
حييت! يا رب! مهما قدَّرت علي، ومهما ابتليتني، سأبقى أحبك،
بل سيزيد حبي لك، ولن أسمح لشيء أن يعكر صفو محبتي لك.

أني، يا من أنعم الله عليك بالكثير في ماضيك وحاضرك..
لكنك لن تتذكر الماضي وتستشعر الحاضر إلا إن كنت وفيًا

معترفًا بالجميل .. بعد هذا الإنعام الإلهي، إن لم تصل محبتك لله مرحلة الالارجعة، فمتى تصل؟ وأي شيء يوصلها؟!

جميل أن نكون أوفياء أصحاب حياء شكورين ودودين معترفين بالإحسان والامتنان مع البشر.. لكن الأجمل والأولى والأحق أن نكون كذلك مع الله تعالى خالق البشر، الذي ما أحسن إلينا مُحسن إلا بتقديره تعالى ولطفه وسترته على عيوبنا وتحببنا إلى خلقه.

فهكذا كن مع الله .. حب بلا رجعة ..

لِيْسَ لَكَ عَلَى اللّٰهِ فِي الدُّنْيَا حَقُوقٌ

من أهم الحقائق التي تطمئنك وتصبرك وتزيد حبك لله:
لِيْسَ لَكَ عَنْدَ اللّٰهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا "حَقُوقٌ" !

في الحديث الذي رواه أبو داود وصححه الألباني عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب، فقلت له : (وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِّنَ الْقَدْرِ، فَحَدَثَنِي بِشَيْءٍ، لَعَلَّ اللّٰهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي).
فقال: (لَوْأَنَّ اللّٰهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ، وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَّبُهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْ أَعْمَالِهِمْ. وَلَوْ أَنْفَقْتُ مِثْلَ أُحْدِي ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ مَا قَبْلَهُ اللّٰهُ مِنْكَ حَتَّى تَؤْمِنَ بِالْقَدْرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُنَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَكَ، وَلَوْ مَتَ عَلَى غَيْرِهِذَا دَخَلْتُ النَّارَ). قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، ثم أتيت زيد بن ثابت ، فحدثني عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك .

كم ستستريح يا أخي ، وكم ستستريحين يا أخي ، إذا استقر هذا المفهوم في نفسك واطمأن إليه قلبك: لِيْسَ لَكَ عَلَى اللّٰهِ فِي

هذه الدنيا شيء هكذا كحقٍ تتوقعه بمجرد وجودك ! ولو حرمك كل شيء فليس بظالم لك سبحانه .

وإنما أوجب الله على نفسه لعباده المؤمنين الجنة .. ﴿ قُلْ أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۖ ۚ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَلِيلِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً ۖ ۚ ۚ﴾ [الفرقان: 15، 16]

نعم، أوجبها الله على نفسه لعباده المؤمنين فضلاً منه وكرماً، وجعل لما يطلبه الإنسان في هذه الدنيا أسباباً وسُنّة، من أخذ بها نال .. وأمر عباده بأوامر، ووعدهم إن قاموا بها بوعود، كالرزق لمن اتقى والنصر لمن ينصر ربه، والتمكين لمن آمن وعمل الصالحات. فمن لم يحصل من هذا شيئاً علم أن القصور في توفيقه أمر ربي الذي عليه وعد وعده، وأنه في سنة البلاء التي وعد الله بها أيضاً: ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ ۚ ۚ ۚ﴾

أما أن تفترض أن لك عند الله أن يعطيك مجرد وجودك ! فما هذا إلا لعدم إدراكك مقام العبودية أمام مالك الملك سبحانه !

إذا استقر هذا في نفسك فإن نقطة الانطلاق في افتراضاتك هي اللاشيء. فإن أنعم الله عليك بالصحة وابتلاك فيما دونها من مال وأهل وغيرها فأنت تتذوق نعمة الصحة وتعترف لله بالجميل.

أما إن كانت نقطة الانطلاق هي أن من حملك على الله أن يعطيك كل شيء فإنك لن ترى إلا النصف الفارغ من الكأس، وستذهب نفسك حسرات على كل نعمة فقدتها وإن أنعم الله عليك بكل ما سواها. وهذه مصيبة كثيرين، أنهم يرون من "حقهم" على الله أن يعطيمالاً والصحة والأمن و... و... وإن حرموا شيئاً من هذا حاكم في صدرهم تجاه ربهم تعالى ما لا يليق!

عندما تستذكر أنه ليس لك على الله شيء وأن الأصل في الدنيا أنها دار ابتلاءات، فإنك ستري المسرات مصبرات بدلاً من أن ترى البلاءات معکرات.

فمثلاً قد تكون في غمرة التجهيز للاحتفال بمناسبة سعيدة، فيحصل حادث لأحد العزيزين عليك من أهلك! إن افترضت الكمال في حياتك فسترى هذا الحبس معكراً لاحفالك يفسد بهجته. أما إن استقر في نفسك أن هذا الحادث بلاء من البلاء المتوقعة في الدنيا -لأن الأصل في هذه الحياة الابلاء- فسترى مسيرة الاحتفال مصبراً مُنفّساً عن شيء من الهم الذي لا بد منه..

فانطلق في حياتك وأنت متذكر جيداً لهذه الحقيقة: ليس لك عند الله في هذه الدنيا حقوق.

ليس ما ينقصك هو أهتم شيء

من طبع النفس البشرية أنها يضعف لديها الشعور بالنعم المستمرة فتصبح فاترة باهتة في الحس. وإذا فقد الإنسان القناعة فإنه لا يفكر إلا فيما ينقصه من نعم حتى يشعر أن هذا الذي ينقصه هو أهتم مقومات الحياة البشرية، وأن حياته لا طعم لها بدون هذا الذي ينقصه، تعال نستعرض أمثلة من ذلك:

- **الفقير** يقول : ما قيمة الحياة دون مال؟! إن كنت لا تستطيع أن أوفر لأولادي ملابس جديدة في العيد، فينكسر خاطر ابني الصغيرة ويرتد بصرها حسيراً عندما ترى بنات الأقراء يلبسن الجديد الفاخر ويمس肯 بشنطة العيد في أيديهن، وهي بثياب وشنطة قديمة.. فالمال كل شيء.

هذا الفقير معاف في جسده متزوج قد رزقه الله أولاً لكنه لا يرى هذه النعم لم يعد يفكر إلا فيما ينقصه.

- **المريض** يقول ما قيمة الحياة دون صحة سليمة؟ ماذا تنفعني أموالي إن كان الطب قد عجز أن يجد لي شفاء لمرضي الذي يزداد حدة بمرور السنوات فيخيم على حياتي كابوس الارتماء مقعداً لا أستطيع خدمة نفسي يوماً من الأيام.. أي طعم للحياة مع ذلك؟! ليتني أفقد مالي كله وأنعم بالصحة، فالصحة هي كل شيء.

- **العزباء** التي لم ترزق زوجاً تقول ما قيمة الحياة دون إشباع عاطفي؟ ماذانفعني شهادتي ومالي وصحتي إن لم أجده من آنس له ويأنس لي؟ إن لم يكن لي شريك روح أملأ عليه حياته ويملاً على حياتي؟ ليتني أفقد كل شيء وأنعم بزوج يجعل لحياتي معنى.

- **السجين** لفترات طويلة يقول : ما قيمة الحياة دون حرية؟! إنني أُدفن قبل موتي ! ماذانفعني مالي وصحتي وتعليمي؟ الحرية هي كل شيء.

- **العقيم** يقول : ما قيمة الحياة دون أولاد يملؤون البيت صخباً وبهجة؟ ماذانفعني مالي صحتي إن كنت أنا وزوجتي لا نجد في بيتنا كل ليلة إلا الصمت والهدوء القاتل؟ ما قيمة الحياة إن كانت ستنتهي بموتي فلا عقب لي يحمل اسمي؟ من أعمل وأجمع المال ولمن أتعب؟

- **دميم الخلقة** يقول: ما قيمة الحياة إن كانت الأنظار تزدرني؟ ما قيمتها إن كنت أكره رؤية نفسي في المرأة كل صباح؟! ماذانفعني مالي وشهادتي وصحتي بعد ذلك؟ ليتني أفقد كل شيء وأنعم بمظهر حسن.

وهكذا؟! يزدري أكثر الناس - إلا من رحم الله - نعمة الله عليهم، ويظن كل مبتلى أن ما ينقصه هو أهم شيء أو كل شيء.

فمن أصحهم شكوى؟ الفقير أم المريض أم العزياء أم السجين
أم العقيم أم الدميم؟ هل المال هو كل شيء؟ أم الصحة؟
أم الزواج؟ أم الذرية؟ أم الجمال؟ أم الحرية؟ إما أن يكون أحد
هذه الأشياء هو أهتم شيء أو كل شيء، وأنها جميعاً دعاوى باطلة.

والحق أنها دعاوى باطلة! منشؤها نقص القناعة، والذي يضخم حجم ما ينقص الإنسان بينما يجعل النعم العظيمة التي يتمتع بها فاترةً باهتةً في حسه. ولذا قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 22] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر لا تزدرو نعمة الله عليكم)) .. فإنه لذكراً جميل أن ترى نعم الله الكثيرة عليك لا شيء بينما ترى ما ابتلاك بفقد هو كل شيء! ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83] لذا فإنك ترى آيات كثيرة في القرآن تذكر بنعمة الله و تستحب الشكر عليها.. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38] وإن أقبح الأوصاف في القرآن لمن لا يقدر النعمة، لفظة الكفر ﴿فَكَفَرَتْ بِإِنْعَمْ اللَّهِ﴾ [النحل: 112] .. إن هناك نعماً عظيمة لا نلاحظ وجودها أصلاً ولا تحظى ببيان أهميتها في الدروس والمواعظ والخطب، مع أنها لا تقل أهمية مما ذكر أعلاه من نعم. مثال ذلك نعمة "الدافعية".

أيُّنا سمع درسًا أو خطبةً أو قرأ في كتاب عن نعمة الدافعية؟
إذا أردت أن تعرف أهميتها فانظر إلى مريض الاكتئاب، ذلك
المرض الذي كثيراً ما يكون غير معروف السبب ويطلب
معالجات مكلفة قد يتاخر مفعولها.. وهو يختلف عن الحزن الذي
يعترى أي إنسان بشكل عارض.

سل مريض الاكتئاب كيف فقد الدافعية للحياة، فلا دافعية
لأكل والشرب، ولا للتعلم والعمل، ولا لعلاج نفسه ولا من هو
مسؤول عنهم، ولا لمؤانسه زوجه وملاءكة أطفاله.. الحياة كلها بلا
طعم ولا لون ولا رائحة! لا يشتهي ولا يتمنى شيئاً إلا الموت!

فيما من ترى المال كل شيء، أتتمنى أن تؤتي المال وتفقد
الدافعية؟ يا من تتمنين أن تفقدني كل شيء مقابل أن تعيشي في
عش الزوجية، هل ستكونين سعيدة إن رزقت خير زوج
وفقدت -لا أقول كل شيء- بل فقدت الدافعية فقط؟

لذا أخي وأختي، علينا الحذر من ازدراء نعم الله علينا، علينا أن
نستشعر هذه النعم ونجد الابتهاج بها في نفوسنا ونحن نتلوا مثل
 قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ وَظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

يبقى السؤال المهم: هل هناك نعمة غير ما ذكر يمكن اعتبارها كل شيء في هذه الحياة؟ نعم! إنها نعمة الإيمان.. فبالإيمان تصر على ما ابتليت به من فقد بعض النعم، فقد يكون صبرك نعمةً أكبر مما فقدت! مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، وَلِيَسَ ذَاكَ لَأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَهُ سَرَاءٌ شَكَرٌ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) (رواه مسلم).. بينما بانعدام الإيمان تصبح النعم بلاءً واستدرجًا وسبباً في طول الحساب وشدة العذاب:
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَرِثُوا دُرُّاً إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

لقد نجى الله يوسف عليه السلام من فتنة الدين، وهي محاولة النسوة إغواؤه، وابتلاه تعالى بالسجن، وهو بلاء دنيوي. واعتبر الله ذلك فضلاً على يوسف واستجابةً لدعائه: **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَّفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [يوسف: 34] ، مع أنه قدر عليه سجنًا طويلاً.. نعم! فإذا سلم الدين فإن بلايا الدنيا تنقلب منحًا للدنيا والآخرة، كما حصل مع يوسف عليه السلام.

فاللهُمَّ ارزقنا الإيمان والقناعة والصبر.

تعالى مع الوضع الجديد

أصيب الأب بمرض يضعف قدرته بالتدريج.. أخبر الطبيب العائلة أن المرض مزمن وأن العلاجات إنما هي لإبطاء تدهور الحالة فقط. رفض الأبناء هذه الحقيقة! ذهبوا إلى طبيب ثانٍ وثالث، أجروا تحاليل متقدمة، أوصوا ابن عムهم في كندا بإرسال دواء جديد، طرقوا باب العلاج الطبيعي، جربوا الأعشاب.. ولكن أباهم يتراجع شهراً بعد شهر.

بكوا عندما تعثر أبوهم للمرة الأولى إنذاراً ببدء مرحلة فقدان التوازن، انحبست الدمعة في أعينهم عندما فشل للمرة الأولى في رفع اللقمة إلى فمه، تجهمت وجوههم حزناً عندما بدأ يحتاج من يساعد في قضاء حاجته..

في هذه المحطات كلها كانوا يقولون: (ليس هذا أباًنا الذي عرفناه.. نريد أباًنا الذي عرفناه! نريد أباًنا القوي النسيط.. لقد كان أبونا يقييل عثراتنا.. كان هو يلطفنا ويطعمنا بيده على المائدة.. لقد كان وكان... أبونا لم يهرم بعد.. ما زال في الخمسينات.. أعمامنا الذين يكبرونه سنًا في صحة وعافية).

لعلها سحابة صيف ستندفع .. لعل الأطباء جمِيعاً مخطئون في التشخيص .. نريد أباًنا الذي كان).

كان الأب يقرأ ذلك كله في عيون أبنائه وقوسات وجوههم فيحزن لحزنهم .. ولكي يُرضي نفسه عن قدره ولا يزداد هماً أصبح يتتجنب النظر في وجوههم أصلًا! لم يعد يتحمل رؤية الإشفاقي المختلط بالأمل الوهمي .. لقد مرت سنوات ولا زال الأبناء ينطحون صخرة الواقع، وتذبل زهرة قلوبهم وهم يرون أباهم يذبل.

إننا تُتعب أنفسنا عندما نرفض واقعًا جديداً سيستمر؛ عندما نرفض التعايش مع هذا الواقع، عندما نصر على أننا لا نريد أي "خسائر" في هذه الحياة الدنيا!

أبناء هذا الرجل المريض رفضوا حقيقة أنهم قد ابتلوا بمرض أبيهم الحبيب مرضاً مزمناً. أخذوا بالأسباب المادية كلها، وهذا شيء محمود.. لكنهم بدؤوا يخطئون عندما بدا واضحاً أن أباهم لن يعود كما كان بحسب السنن المعهودة، فرفضوا هذه الحقيقة لأنها مُرة، لم يتعايشو معها ولم يتقبلوها.. فتبعوا وأتبوا أباهم معهم!

عندما نُبْتلى ببلاء فإنه لا بأس بأن نسعى في كل اتجاه شرعه الله، ونطرق كل باب ممكن، وفي قلوبنا الأمل بدفع هذا البلاء ..

لكن هذا السعي الحثيث ينبغي أن يكون مرحلياً مؤقتاً.. فإذا بدأ أن هذا البلاء قَدْر ثابتُ مستمر اختاره الله لنا، فإن من الحكمة أن نعيد توجيه جهودنا من مدافعة هذا البلاء إلى التعايش معه.

كثيرون هم من سيرفضون هذا الكلام باعتباره دعوة للاستسلام أمام البلاء.. فتعالوا أيها الأحبة نناقش الأمر بترؤُّس أيهما أفضل؟! أن يقول أبناء هذا الرجل المبتلى لأبيهم: (اصبر يا أبانا.. لعل مرضك هذا يكون سبباً في دخول الجنة. ماذا يضيرك إن كنت ستتني تعب الدنيا كله بغمسة في الجنة؟! ثم نحن أولادك أجزاء منك؛ نحن يداك ورجلاك وسمعك وبصرك.. ما عليك الآن إلا أن تستريح وتأمننا بما شئت لنخدمك بعيوننا ونناول أجر برّك). نسأل الله أن يكون مرضك دلالة على حب الله لك، فإن عظم الجزاء مع عظيم البلاء، وإن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم).

أهذا أفضل، أم أن يدغدوا عواطف أبيهم بكلمات الأمل في الشفاء فترتفع معنويات المسكين وتنشط نفسه مؤقتاً ثم يتكشف له مع مرور الوقت أنه أمل وهمي زائف، فيضمحل التفاؤل ويعظم اليأس وتنكس النفس؟

أيها أفضل؟ أن يركز الأبناء جهودهم على تكيف حياة أبيهم حسب المرض بجدولة أوقاتهم لتقاسم خدمته وتوفير الأدوات

اللازمة لاحتياجاته الشخصية اليومية بما يناسب مرضه، وإدماجه في نشاطات تناسب مرضه وتملاً وقته.. أم أن يُبقوا كل شيء على ما هو عليه لأن أباهم "سيعود كما كان" ويدهبا بأبيهم إلى الطبيب السادس والسابع ويعلقوا قلبه بقصص غير دقيقة سمعوها عن رجل شفي من المرض نفسه بعشبة لدى المعالج الفلاني.. وفي كل مرة يذهب معهم المسكين بأمل جديد ويرجع بانتكاسة.

سيقول قائل: (ولماذا لا يجمع بينهما: الأمل والتعايش؟).. إن الواقع يشهد بأنه لا بد لأحد هذين الخيارين أن يكون الأصل والآخر الاستثناء، وأن النفس لا تجمع بين ذروة الأمل بزوال البلاء والتعايش معه بشكل كفؤ والصبر عليه. لا بد لأحدهما أن يحتل مساحة أكبر من التفكير والجهد.

وفي مثالتنا، بقاء الأمل بالشفاء في ذروته يعني ضمنياً أنه (ليس هذا هو الوضع الذي نريده لأبينا)، وهذا الهاجس يزعزع الصبر ويُصعب التعايش ويُفوت فرص الاستثمار المجدى للوقت والجهد.

إننا ننصح من ابتلي بما هو طويل الأمد عادة أن يعتبر الوضع الجديد هو الأصل، والعودة إلى ما كان عليه قبل البلاء استثناءً.

فهذا أدعى إلى أن يلتفت المبتلى إلى مباحج جديدة في حياته تشغله عن الشعور بنقص النعمة التي فقدها.. فينطلق من جديد في الحياة بما يتوفّر لديه من مقومات. فإن قدّر الله خلاف المألف وكشف هذا البلاء، كان ذلك زيادةً وخيراً على خير. أما إذا افترض المبتلى أن الأصل هو زوال هذا البلاء فإنه سيبقى يشعر بنقص في حياته وفجوة في قلبه، وسيشغله هذا الشعور عن ملاحظة المباحج الأخرى في حياته، وسيكون حديث وتفكيره منصباً على البلاء فيدور في حلقة القلق المفرغة.. وقد يوصله ذلك إلى ازدراء نعمة الله عليه!

بل وإذا تعايشت فإنك سترى مباحج في نفس ما ابتليت به، فأبناء هذا الرجل الذي ذكرناه في المثال سينقلب تركيزهم من الضيق برفض حقيقة المرض المزمن إلى الانسراح بنجاحهم فيما يحقّونه من تخفيفٍ على والدهم وتذليل العقبات له واحتساب الأجر في ذلك كله.. وهو كذلك سيسيرُ بما خفف الله به عليه وعوضه خيراً من هؤلاء الأولاد الذين يرى ان شراحهم وطيب نفوسهم.

سيقول قائل: لكنني أعرف أمثلة من أناس خرقت لهم العادة! فلانْ قنَطَه الأطباء من الشفاء فشفي.. فقد يحصل معي كما حصل معه.

ها قد قلتها: "قد يحصل" .. وقد لا يحصل! فوطن نفسك يا أخي ويا أخي على ما يغلب على الظن حصوله عادة، وابحث عن مباحث أخرى في حياتك، وأولها وأعظمها ما لن تحرمه إذا طلبه بصدق: رحمة الله تعالى ﴿قُلْ يَفْضُلُ اللَّهُ وَبِرَّهُمْ تِهِ فَيَنْدِلُكَ فَلَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يوسوس: 58] .. فحيينئذ سيمتلئ قلبك أنساً بالله تعالى ورضا بقضائه وتوكلًا عليه وحسن ظن به ..

وابقِ مع ذلك كله .. شمعة الأمل مضاءة ..

لماذا لا نستمتع بالنعيم؟

تمر سنوات من حياتنا تجتمع لنا فيها أسباب كثيرة للسعادة، لكننا إن سألنا أنفسنا: هل نحن سعداء؟ فقد يأتي الجواب من أعماقنا: لستُ متأكداً!

هناك طموحات وتطلعات تشغله بالك لم تتحقق بعد. تصبح هي محط تركيزك. أما ما اجتمع لديك من أسباب السعادة فقد فَتَرَ في حسْك وبيهـت الـوانـه وأصـبـح كالـخـلـفـيـةـ الجـامـدـةـ غيرـ المـهمـةـ فيـ الصـورـةـ التـيـ يـنـقـصـهاـ مـحـطـ تـرـكـيـزـ العـدـسـةـ،ـ وـهـوـ هـذـهـ الطـموـحـاتـ التـيـ لـمـ تـتـحـقـقـ بـعـدـ.

كما يصدأ الحديد فإن أدوات تذوق النعم المركوزة في نفوسنا تصدأ.. لذا فإن الله تعالى يذكرنا في مواضع كثيرة بهذه النعم التي فترت في حسنا ولم تعد تعني لنا شيئاً:

﴿أَلَمْ تَرُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَعَ عَلَيْكُمْ يَعْمَلاً وَظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20] ..

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْأَنْهَارَ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ٢٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَاهِيَنِ ٢٣ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيلَ وَالنَّهَارَ ٢٤ وَأَتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُخْصُوهَا ٢٥﴾

إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ [ابراهيم: 34-32]، وآيات كثيرة عن السمع والبصر والمسكن والملبس والطعام والشراب والنار والمعادن والنوم والبعث بعده والأزواج والأولاد وغيرها.

آيات كثيرة، حتى لا نزدرى نعمة الله وننساها. لكننا مع هذا التذكير الإلهي قد لا نستمتع بهذه النعم. ليس الحديث هنا عن التفكير بمشاكل المسلمين والتآلم لأجلهم، فهذا مطلوب بالقدر الذي يدفع إلى العمل بإيجابية لمساعدة هم ونصرتهم. وليس الحديث عن تنغض العيش بظلم الظالمين الذين يفسدون علينا حياتنا ويسعون في الأرض فساداً، فهذا التنغض لا بد منه، وينبغي أن يدفعنا إلى إصلاح أوضاعنا بعملٍ دؤوب، والقضاء الواحد تسخط على الظالم فيه وترضى عن الله وتستعين به على مدافعة هذا الظلم..

لكن الحديث هنا عن فقدان القدرة على تذوق النعم والشعور بمنة الله علينا فيها، وهذا داء يصيب النفس بغض النظر عن الاهتمام للمسلمين والتكرر يافساد الظالمين.

هذا الداء جزء من ظواهر نفسية يعرفها المعالجون النفسيون بالـ (Cognitive Distortion)، أي: التشوه المعرفي، ويسمون هذه الظاهرة بالذات: (Mental Filter)، أي: الفلترة الذهنية، وهي عدم قدرة الفرد على ملاحظة النواحي

الإيجابية في حياته بسبب انشغال ذهنه بمعكر بسيط نسبياً، كمن لا يرى إلا خللاً بسيطاً في ثوب جميل نافع. هذه إخواني ظاهرة غير صحية تحتاج علاجاً، لكنها في الواقع قد تكون موجودة لدى أكثرنا.

إذا لم يفلح أحدنا في تذوق نعم الله عليه وقدرها حق قدرها فقد يبتليه الله تعالى بفقدان أحد هذه النعم. والسعيد حينئذ من اتعظ ونبهه فقدان هذه النعمة إلى أن هناك أشياء كثيرة في حياته لا زال يمتلكها تستوجب شكر الله وتستحق أن تكون بها سعادة. يأتي البلاء ليزيل الصدأ عن أدوات استشعار النعم المركوزة في فطرتك وينظفها ويعيد للحياة رونقها ويضفي عليها ألواناً بهيجة من جديد، بعد أن كانت خلفية باهتة رتبة لا لون فيها! بعد أن كانت الفلترة الذهنية تشغلك عنها وتغضن من قيمتها وتعكر رونقها بالتطلع إلى ما لم يتحقق بعد من طموحات.. يأتي البلاء ليعلم الإنسان فن تذوق النعم!

كانت النعم لديك وفيرة، لكن قدرتك على تذوقها ضعيفة، فلم تحفل بها وتسعد كما يجب. قد تقل النعم بالبلاء الذي أفقدك مالاً أو جهاً أو صحةً أو غيرها، لكن إن كنت من أهل الرضا وحسن الظن بالله وتأمل حكمته فإنك ستتبَّه بالبلاء إلى الكثير الذي بقي لديك وستجي من الله أنك لم تقدر نعمته عليك من قبل، فتكتسب فن تذوق النعم وتسعد بها وتطمئن.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ يُرْزَقُونَ الْعَافِيَةَ وَيَشْكُرُونَ..

خلاصة هذه المحطة:

البلاء وإن كان يحرمك من بعض النعم،
لكنك تستطيع تحويله إلى سبب
لتذوق النعم الباقية التي بهتت في حسك،
وشكر الله عليها.

لا أستحق

مرت أربعة وأربعون عاماً من عمري.. تقلب خلالها في نعم الله عزوجل.. في حلمه وكرمه وستره ورحمته.. بما يعقد اللسان.. ما من بلاء عانيته إلا ويترفق بي الرحمن فيه، ولا يحملني ما لا طاقة لي به، بل يشعرني بقربه ومعيته و يجعل لي في ثنايا البلاء خيراً عظيماً، في ديني ونعم قلبي ودنياي..

كانت عيني ترقُّ أحياناً، وأنا في داخل بلائي، وأقول: (ماذا فعلت حتى يحصل معي هذا؟)، (لماذا أنا يا رب؟)، (والله يا رب لا أستحق)..

أعني: لماذا فعلت حتى تحصل معي هذه اللطائف من رحمة رب؟! لماذا أنا ينعم علي رب بهذا الشكل؟! لا أستحق هذا الإنعام، إيه والله لا أستحق.

وكانت تراودني الهواجس أن يكون هذا الإنعام استدراجاً، وأنني في يوم من الأيام سوف "أعقب" على تراكمات تقصيراتي وأجرد من هذه النعم لأعود إلى حجمي الحقيقي كإنسان لا يستحق كرم ربه، وأفقد الإحساس بالحظوة عنده سبحانه.

لَكِنَّ يَوْمَ الْعِقُوبَةِ الْقَاصِمَةُ هَذَا لَمْ يَأْتِ، بَلْ لَطْفٌ يَتَجَدَّدُ وَكَرْمٌ
يَغْمُرُ وَإِنْعَامٌ يَزْدَادُ! وَإِذَا جَاءَ بَلَاءً فَمَعَهُ تَصْبِيرٌ وَلَطْفٌ.

بَلْ وَأَدْرَكَتْ أَنْ خَوْفِي غَيْرُ الْمُتَوازنِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْإِنْعَامُ
اسْتَدْرَاجًا كَانَ سُوءُ أَدْبِرِ تَجَاهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَالْتَّعَالِمُ مَعَ هَدَايَا
تَعَالَى كَانُهَا "مَسْمُومَةٌ" يَعْكِرُ عَلَى مَقَامِ الشَّكْرِ.. فَأَحْمَدَهُ عَزَّ وَجَلَّ
عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْنِي بِسُوءٍ ظَنَّيْتُ هَذَا!

الْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ مَطْلُوبٌ، لَكِنْ مَعَ مَحْبَبَةِ اللَّهِ تَغْمُرُ قَلْبَ
الْعَبْدِ.. مَطْلُوبٌ، لَكِنْ لِيُدْفَعُكَ إِلَى إِصْلَاحِ أَوْضَاعِكَ، لَا لِيُعَكِّرُ
عَلَيْكَ نَعْمَهُ سَبْحَانَهُ وَيُحرِمُكَ بِلوْغِ مَقَامِ الشَّكْرِ.

كَثِيرًا مَا تَسْأَلْتُ:

(لَا أَسْتَحْقُ هَذَا الْكَرْمِ كَلَهُ مِنَ اللَّهِ !!)، فَكَأَنِّي أَسْمَعَ الْجَوابَ:
(صَحِيحٌ، أَنْتَ لَا تَسْتَحْقُهُ.. لَكَنَّهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ أَلَا يُسْعَكُ كَرْمَهُ)

- (أَعْمَالِي قَلِيلَةٌ لَا تَوَازِي نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيَّ!).
- (صَحِيحٌ، لَكَنَّكَ تَتَعَالِمُ مَعَ الْوَدُودِ الشَّكُورِ سَبْحَانَهُ).

- (لكن هناك من أحسبهم خيراً مني، فلماذا أنا؟)
- (ليس شأنك - "مش شغالك" -، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. يعطيهم وإياك من فضله ولا يظلم أحدا)

- ("مش شغلي"، طيب.. لكن ما هو شغلي إذن؟ كيف أعبر لربِّي عن امتناني وأستديم نعمه؟)
- (أَفِضْ عَلَى النَّاسِ مَعْنَى الْمُحْبَةِ وَحَسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ الَّتِي تَعِيشُهَا (وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)، وَهَدِّهُمْ عَنِ رَبِّهِمْ وَدَوْدِهِمْ حَلِيمٌ بَرِّ كَرِيمٌ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدَّثُ﴾ [الضحى: 11].
وَكَنْ مِنَ الشَاكِرِينَ).

مقدمة عن تعليق القلب بالأخرة

أيها الكرام..

لا زلنا نتأمل: كيف نحب الله تعالى بلا شروط؟ كيف تتضمن، فلا
نمنع البلاء أن يؤثر على حبنا لله فحسب، بل نحوه إلى سبب
لزيادة حبنا لله؟ كيف نبني حبنا لله على أساس سليمة لا تهتز
ولا تتأثر بالمتغيرات؟

في المحطات السابقة ركزنا على أول أساسين من هذه الأساسين،
وهما:

1. تأمل أسماء الله وصفاته من خلال البلاء.
2. التفكير فيما أنعم الله به علينا في ماضينا وحاضرنا.

الأساس الثالث الذي سنتأمله هو: **تعليق القلب بالأخرة**،
وهو موضوع الصفحات القادمة.

ليست الدنيا دار جزاء

ستتعجب إن قاومت هذه الحقيقة ومهما غالبتها ستبقى هي الحقيقة.. ليست الدنيا دار جزاء. فلو كانت دار جزاء لما قتل أنبياء كزكريا ويحيى عليهما السلام، ولما عذب عدد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى الموت كياسروسمية، دون أن يروا قائمة تقوم للإسلام، ولما حصل لأهل الأخدود ما حصل.

لذا فعندما تتفكر في فوائد البلاء فلا تحصر نظرتك في الدنيوية منها.. فالنفس تبحث دوماً عن ثمرة عاجلة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: 16، 17].

وإن لم يأت الفرج المترقب حتى الممات فإن القصة لم تنته ﴿وَرَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

وقد خطأ الله تعالى النظرة القاصرة التي تعتبر إغداقاً النعم في الدنيا إكراماً من الله للإنسان والابتلاء إهانة: ﴿فَأَمَّا إِلْيَسَنُ إِذَا مَا أُبْتَلَهُ رَبُّهُ وَفَأَكْرَمَهُ وَنَعَمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: 15-17] .. فإنما فقدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْتَنِ ﴿كَلَّا﴾ .
حقيقة الإكرام والإهانة في الآخرة، أما الدنيا فدار بلاء.

في قصة يوسف عليه السلام، بعد أن بين الله تعالى أنه مكّن له في الأرض جزاء إحسانه قال تعالى ﴿وَلَاَجُرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 57].. خير من نقله من ظلمة السجن إلى كرسي الحكم. فحتى إن جوزيت خيراً في الدنيا فعلم قلبك بأجر الآخرة الأعظم.

في بيعة العقبة الثانية أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار التزاماً بالتضحيّة بكل شيء.. التزاماً يعرضهم لابتلاءات في الأنفس والأموال والأولاد.. فما المقابل الذي وعدهم به إن قبلوا؟: ((ولكم الجنة)).. فالجزاء أخروي.. صحيح أن نصوصاً أخرى وعدت بجزاء دنيوي كذلك (كالآية 55 من سورة النور).. لكن هذا الجزء على مستوى جماعة المؤمنين أما الأفراد فإن كثيرين منهم ماتوا ولم يستمتعوا به..

ويبقى نوع من النعيم يمنحه الله لكل مؤمن عاجلاً في هذه الدنيا زاداً يعينه على سلوك الطريق بمشتقاته؛ وهو طمأنينة النفس والاستبشران: ﴿أَلَا إِنَّ أُولَئِكَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٦] ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [٧] لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل للكلامِ اللهم ذلك هو الفوز العظيم﴾ [٨] [يونس: 62-64]..

إذا لم يستقر هذا المفهوم في نفس المسلم: أنه (ليست الدنيا دار جراء)، فإنه ستتسوء منه الظنوون عندما يقارن وضعه الدنيوي بأوضاع من لا يؤمنون بالله تعالى.. لذا فقد نهانا الله عن إجراء هذه المقارنات الدنيوية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَ عَيْنِيَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَرْوَاحًا مِنْهُمْ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِتَعْنَتَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [٣٦] .. فارفع رأسك إلى السماء أيها المؤمن وتعرض لنفحات الجنة ولا تنزل بيصرك إلى ما فيه هؤلاء، فإنما هو فتنة لهم واستدرج.. قال عليه الصلاة والسلام: ((أولئك قومٌ عجلَتْ لهم طَيِّبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) (البخاري).

ومما ورد عن الحسن البصري رحمه الله: (من لم يتعزّ بعزاء الآخرة تقطعت نفسه على الدنيا حسرات) .. نعم! سيتحسر على كل متاع دنيوي يفوته، خاصة إذا قارن نفسه بغيرة.. أما المؤمن فيوقن بأن ما يفوته في الدنيا قد ادخل له أضعافه في الآخرة: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلِمُونَ فَتَيَّلًا﴾ [النساء: ٧٧] .. وبأن توفيقية الأجر لا تكون إلا يوم القيمة: ﴿وَإِنَّا تُوَفِّونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ..

كن كالمحبوس !

المحبوس تسيطر على ذهنه مفردات: (الحبس) (الإفراج) (الحكم) (القاضي) (التهمة) (الدفاع) (البيينة) (البراءة) (التخفيف) (العقوبة) (المدة).

فتراه يفكر في هذه المفردات في قيامه وقعوده وصحته ومنامه وأكله وشربه وصلاته ورياسته.

وتراه إن أمسك جريدة مثلًا أو سأله عن الأخبار اهتم بما يتعلّق بالحبس والإفراج وبما يخدم قضيته وينجيه من العقوبة.

لا يتوقع أن يبحث عن موديلات السيارات وأسعار الفلل السكنية.. فهذا كله لا يعنيه!

فلنستحضر أننا في هذه الدنيا محبوسون عن وطننا الأصلي، وهو الجنة، وأن معاصينا تهم حقيقة عليها بَيِّنات، فنستحق عليها العقوبة، وأن نقطة دفاعنا الرئيسية عن أنفسنا هي أننا موحدون، فإن تبين أن توحيدنا هذا مطعون فيه فلا تسأل عن مدة العقوبة!

ولنذكر أن البراءة من هذه التهم تكون بالتوبة النصوح .. وأنْ
من بيده القضاء هو الحَكْمُ الْحَقُّ : الله جل جلاله .

حينئذٍ، سنحرض على استرضاء الحكم الحق، والعمل بما
ينقلنا من سجن الدنيا إلى سعة الآخرة. ولن نشغل بسفاسف
الدنيا وملهياتها، فهي لا تعنينا. وستكون قضية النجاة من عقوبة
الله ونواه ثوابه ورضاه مسيطرة على أذهاننا حيّةً في قلوبنا
لا نغفل عنه ساعةً أبداً.

قال ابن القيم:

فَحَيٌّ عَلَى جَنَاتِ عَدْنٍ إِنَّهَا
وَلَكُنَّا سَبِيلُ الْعُدُوِّ فَهُلْ تَرَى
مَنَازِلَكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيمُ
نَعُودُ إِلَى أَوْطَانَنَا وَنُسَلِّمُ

كله محسوب !

عندما يطول البلاء فإن النفس تتقدر على ما يتسبب فيه من "ضياع" الأوقات والأموال وإرهاق الأعصاب وتعكر المزاج وتتأثر الصحة.. لكن المؤمن يتذكر أن لا شيء يضيع عند الله، بل كله محسوب.

قال الله تعالى: ﴿رَأَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١١٥]، وقال الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام: (ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمًّا وَلَا حُزْنًّا وَلَا أَذًى وَلَا غَمًّا، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) (البخاري).

فلا تأس على شيء أيها المبتلى، إن صبرت فإن الصبر هو خير استثمار ل الوقت والمال والصحة.. ولا تفك في ما تبذله من ذلك على أنه مهدر، بل هو رصيد لك هناك يوم لا درهم ولا دينار، إنما هي الحسنات والسيئات.

عندما خيرت نفسى

أثناء ابتلاء مررت به، عز على أن يطلع الله تعالى على قلوب
أناس من أهل الباطل والشهوات فيري بها استعداداً للتضحية في
سبيل الدنيا ونصرة الباطل، ويطلع على قلبي فيراني اشغلت
بهمي وضنت بنفسي عن أن تؤذى في سبيل الله!

فكانت هذه القصيدة بعنوان (عندما خيرت نفسى):

أَسْأِلُهَا فَتَأْبِي أَنْ تَسْلَى
وَتَخْشِي مَا بِهِ الْأَيَامُ حُبْلَى
فَفَرَقَ بَعْدَ طَيْبِ الْعِيشِ شَمْلًا
فَتَرَجَعَ مِنْ شَدِيدِ الشُّوقِ ذَبْلًا
تَرَدَ بِشَارِتِي وَتَمَلَّ مَطْلَا
مَلَلَتِ لَدِي ابْتِخَاءُ الْمَجْدِ بَذْلًا
بِأَفْعَالٍ تَصَدَّقَ مِنْكَ قَوْلًا
وَتَرَسَّلَ فِي حَقْولِ الزَّعْمِ سِيَلا
وَقَوْلُ الزُّورِ يَبْقَى مَضْمَحْلًا
سَوْيَ يَا لَيْتَ، لَوْأَنِي، وَلَوْلَا

تَئِنَ النَّفْسُ مِنْ أَنْسِ تَوْلَى
تَنْوَءُ بِحَمْلِهَا وَتَضِيقُ ذَرْعًا
وَتَزْفَرُ مِنْ مَصَابِ حَلْ فَيْنَا
أَشَاغِلُ حَزْنَهَا بِجَمِيلِ ذَكْرِي
وَإِنْ وَاعِدْتُهَا فَرَجَّا سِيَائِي
عَلَامُ أَرَالِكَ يَا ذِي النَّفْسُ كَسْلَى
أَلَا التَّمْسِي الْبَرَاءَةُ مِنْ نَفَاقٍ
هِيَ الْأَقْدَارُ تُبْطَلُ كُلُّ دُعَوْيَى
فَتُنْبَتُ مِنْ بَذُورِ الصَّدْقِ دُوْحًا
فَلَمْ يَحْصُدْ دُنْيَهُ الْعَزْمُ فِيهَا



غَشَّ وَفِي سَعِيهِمْ صَعِبًا وَسَهْلًا
 يَذُوقُ لِأجْلِهِ طَعْنًا وَقَتْلًا
 صَغَارًا يُتَمَّا، وَالْأَمْثَكَ لِـ
 بَعْلَةَ أَوْ بَعْزَةَ أَوْ بَلِيلِي
 وَيَحْسَبُ أَنَّهَا أَوْفَتْهُ كِيلَا!
 يَفَارِقُ فِيهِمَا وَطَنًا وَهَلا
 لِيْنَجِوَّ مِنْ هَوَانِ الْعِيشِ ذِيَالَا



يَرِى فِي صَنْهُ بِالنَّفْسِ بِخَلَا
 بَلِي يَا نَفْسُ، بَلْ أَحَدَرِي وَأَوْلَى
 وَرِبِّي إِنْ صَدَقْتُ الْبَيْعَ أَغْلَى
 لِأَقْبَضُ مِنْهُ مَكْرَمَةً وَفَضْلًا
 فَجَارِي الْمُصْطَفَى، وَاللَّهُ مَوْلَى
 وَأَنْشَئَ فِي نَفْوسِ النَّشِءِ نَبْلًا
 طَغَى فِي الْأَرْضِ إِفْسَادًا وَجَهَالًا
 وَجَائِزَتِي لِمَا اسْتَثْقلَتِ حَمْلًا
 عَلَى فَعْلِ الْعِبَادِ لِعَدِّتِ خَجْلًا
 تَرِى فِي الْعِجَزِ خَذْلًا وَذَلًا
 ذَرِيْهَا تَرْتَقِي لِلَّهِ عَجْلًا

فَإِنْ كَانَ الَّذِي يَسْعَى لِدُنْيَا
 أَلْسَتِ لَدِي اطْلَابُ الْمَجَدِ أَهْلَا
 فَغَايَةُ مَطْلَبِي يَا نَفْسُ أَعْلَى
 إِنِّي بِائِعُ نَفْسٍ لِرَبِّي
 وَأَحْظَى فِي الْجَنَانِ بِطِيبِ عِيشٍ
 وَأَنْشَرَ فِي دِيَاجِي الْظَّلْمِ نُورًا
 وَأَدْفَعَ كِيدَأَفَالِ أَثْيَمٍ
 فَلَوْذَاكِرتِي يَا ذِي النَّفْسِ أَجْرِي
 وَلَوْعَائِنِتِ حَسْنِ جَزَاءِ رَبِّي
 فَهَذِي هَمْتِي، وَالرُّوحُ مِنِي
 فَخَوْضِي فِي مَسَالِكِهَا وَإِلَّا



**في الصفحات التالية
متفرقات عن الصبر والتعلق بالله تعالى**

إنها لحظة.. عندما يشتد اليأس فيعظم الرجاء

"ما لنا إلا الله"؛ عبارة أُصبحت في حسّ كثير منا مرادفة لعبارة: "ما باليد حيلة"، عبارة: من لم يجد غُنيته عند البشر فاضطر أن يختار الله! أُصبحت عبارة إشهار إفلاس! ذلك مع أنَّ الأصل أنَّ من لم يكن له إلا الله فما فقد شيئاً، ولا يحتاج إلى شيء؛ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَنْ دُرُّه﴾ [الزمر: 36].. وأنَّ من كان معه كل شيء إلا الله فما معه إلا الباطل الذي لا يُسمِّن ولا يغني من جوع..
ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا الله باطل

إن ما يحصل معنا عند نزول البلاء هو أننا نلجأ إلى الله بدأيَّة، لكنَّنا ما نلبث أن ندرك أنَّ هذا اللُّجوء حتى يكون صادقاً مُثمناً لا بد له من تَبعات؛ فمن تَبعاته أن نبحث عن كل تفريط فرطناه في جنْبِ الله فنُصحله، وعن كل ثغر في حياتنا فنسُدَّه، وعن كل ذنبه فنتوب منه..

ومن تَبعات هذا اللُّجوء أن نُقبل على قلوبنا، ونُفتش عن أمراضها فنعالجها، وسنجد حينئذٍ أننا كنا قد أهملنا قلوبنا لسنوات فعادت خَرَاباً بِلْقَعًا خاويةً غافلة، قد ضُعفت فيها معاني

محبَّة الله وصدق التوكل عليه والخشوع بين يديه والذل له
والتعلق به والشوق إلى لقائه!
فنجد أنه لا بد من إزالة أشواكها وتقليل أرضها وبذر آيات الله
فيها، وسقايتها بماء القيام والصيام والدعا.

نعم؛ سنكتشف أن اللجوء إلى الله والفرار إليه والاعتصام
بحبله هذا كله تبعاته قوله ثمنه.

لكننا نريد التخلص من البلاء بسرعة! وعملية ترك الذنوب
وسد الثغور وقطع الأشواك وبندر البذور وسقيها وانتظار إنباتها
عملية تحتاج إلى وقت، والوقت يمر، وليس في صالحنا، فما الحل؟

الحل الذي نختاره عادةً هو السعي في أسباب أرضية تبدو
أسرع نتيجة وأخف حملاً من عملية اللجوء الصادق إلى الله؛
فننوي أن نسير في هذه الأسباب جنباً إلى جنب مع عملية اللجوء
إلى الله وتبعاتها، وأيتها سبقت في رفع البلاء فيها ونعمت، وأما
تبعات اللجوء إلى الله؛ ففي العمر فسحة لاستكمالها!

وهنا يبدأ الانحراف؛ عندما نُكسل عن تحمل تبعات اللجوء إلى
الله فنبحث عن بديل! نخدع أنفسنا بأن هذا البديل سبب، وأنَّ
الله أمرنا بالأخذ بالأسباب. نعم.. الأخذ بالأسباب محمودٌ عندما
يصدق من اللجوء إلى الله، ونصير ونصابر لإصلاح أنفسنا، فلا
يكون في القلب تعلق إلا به تعالى..

لكن عندما يكون سعينا في الأسباب نتيجةً لاستطالتنا طريق اللجوء إلى الله، ولِكَسَلَنا عن تحمل تبعاتها؛ فإنَّ هذه الأسباب تُصبح في حِسْنا بديلاً عن الله، فتُزاحم هذه الأسباب اللجوء إلى الله في قلوبنا، وتحتلُّ من مساحاته، وتصرف عنه وقتنا وجهدنا وعاطفتنا وتفكيرنا، فنُصبح نفَّرْ في هذه الأسباب الماديَّة أثناء صلاتنا وقيامنا وتلاوتنا ودعائنا؛ فالظواهر مع الله والبواطن مع الأسباب وطرق تحصيلها واستكمالها وخوف فواتها وموانع تأثيرها وبدائلها في حال فشلها، وأخر أخبارها..!

وكلما اكتشفنا أنَّ هذه الأسباب خَرَبت عملية اللجوء إلى الله خَدَرَنا أنفسنا بالمعاذير؛ فنقول لأنفسنا: "إنَّ هذه الأسباب مَوْقُوتَةٌ بمواقيتِ تَفُوتِ بِفَوَاتِهَا، أمَّا باب التوبة فمفتوحٌ لا يُسَدِّ.. إنَّ كَانَ يُقلقني أني لا أبكي من خشية الله ولا أخشى في صلاتي فهذا ليس بالجديد، عَشْتَ على ذلك سنوات طويلة، ولا شيء يأتي دَفْعةً واحدةً؛ لَدِيَ تَحْسُنٌ وإنْ كان بطيئًا، والله رحيم يرى ما بي وهوَنَ الأمر الذي يشغلني فسيعذرني، ثم إنني لن أستطيع الإقبال على قلبي لأصلاحه وأنا مشغول البال بالأسباب وتقديرها فيها، فلأرْكَزَ الآن على الأسباب لأريح بي منها، حتى أتفَرَّغَ لِإصلاح قلبي" !

وكأننا بهذا نتخذ الأسباب "ضمانات" مع الله؛ بحيث إذا قَصَرْنا في حق الله ولم نضمن مِنْ ثَمَ الفرج من جهته أسعفتنا الأسباب..!

أُتريد أن تعرِف إن كان هذا الداء دبَ إلى قلبك؟ حينما تضع رأسك للنوم.. في هذه اللحظة التي تختزل تقلبات كيانك خلال يوم كامل، وأنت تدعو بالدعاء المأثور، ركز جيداً، هل تعني ما تقول؟ هل أنت مستعدٌ لتحمل تبعات هذه الكلمات: "اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك.."؟

إن اضطراب قلبك وأنت تقولها وأنت متأملٌ معناها فاعلم أن القلب يضطرب ويختلف عند الكذب! لأنك لا تريد حقيقةً أن تُسلم نفسك بكلّيتها إلى الله، بل تُريد ضمانات الأسباب مع الله!

لن تشعر بالطمأنينة إذاً أسلمت نفسك إلى الله وهي مشوّبة لم تنوِ بعد أن تُقبل على الله بصدقٍ وتؤدي حقه.. هذه هي الخطورة، وهنا مَكْمَنُ الزَّلَل؛ عندما يكون التَّعلُق بالأسباب الأرضية معوّضاً عن استكمال اللّجوء إلى الله الذي استثقلنا تبعاته، فنظنُّ أنَّ هذه الأسباب أسرع مفعولاً، أو أضمن نتيجة، أو أَدْفَعُ لِعَتابِ أنفسنا من اللّجوء الصادق إلى الله تعالى..

ستبقى تخرج من القلب أسبابُ لتحلُّ أسباب، وستبقى تنتقل من سرابٍ إلى سراب، تطلبُ الماء فلا ماء، وتنقلبُ جبال الأسباب إلى هباء!

ولن تدعُ الله بصدقٍ خلال هذه المَعْمَدة؛ فاللّجوء إلى الله مقامٌ عزيز، يأبى أنْ يُزاحَم أو يُزاحَم، فيبقى خارج القلب ينظر إلى

هذه الأسباب التي خَلَت عن الله فاستحالت باطلًا، ويأبى اللُّجوء
إِلَى اللَّهِ أَن يجتمع مع الباطل في قلب واحد..

إنها اللحظة التي تَقْنَنْ فيها الدَّرَس وتسْتَوِعُهُ، وتدرك أنك في سُعْيِك السَّابق كلَّه لم تكن على شيء.. **وتَيَأسُ** من الأسباب الأرضية كلَّها.. **وتَيَأسُ** من نفسك ومن قدراتها وذكائِها وتخطيطها.. **وتَذَوَّقُ** مرارة ضعف قُوَّتك وقلة حيلاتك وهوانك على الناس.. **وتَيَأسُ** من أهلك وعشيرتك وأصدقائك ومُحبِّيك، وتعلم أنهم - وإن أرادوا لكَ الخير - لا يملكون بِذُواتهم لك نفعاً ولا ضرراً.. **وتَيَأسُ** من كلِّ الحال الأرضية الممدودة إليك وتُوقن أنَّ لا عاصم منْ أَمْرِ الله إِلَّا مَنْ رَحِم.. بل **وتَيَأسُ** من أعمالك الصالحة كلَّها، وتستحي أن تتولَّ إلى الله بها لأنك تُشكُّ في قَبُولِها وقد صَدَرْتَ من قلبك الغافل..!

إنها لحظة اليأس والقنوط والقحط والإِمحَال من كل شيء..

لحظة خلو القلب من كل شيء..

لحظة انهيار الأمل في كل شيء.. كل شيء !

هي اللحظة المناسبة لشعور اللجوء إلى الله أن ينْقَذِ في القلب !

لقد كان هذا الشعور بالانتظار.. يرى أسباباً تَحِلُّ وترتحل، وتنسج في خراب القلب خيوط العنکبوت، فلما خَلَا القلب منها جميعاً واستنفَدَها جميعاً، انCDF فيه اللجوء إلى الله، فَمَلَأَهُ وعَمَرَ

أرجاءه وأنبت خضراءه وجعله ينبض بقوة من جديد، فما يلبث
الرّيُّ أن يفيض على ساقية العينين لتنهر دموعهما من جديد
بعد طول جفاف، وتكتمل الحلقة بلسانٍ يلهمج بأدعيةٍ تتداوّل عليه
وتتهجد مع دقات القلب ودفقات الدّمع ..

إنها لحظة.. سترى أنها هي عندما تعيشها ..

كلحظة الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض
بما رحبّت، وضاقت عليهم أنفسهم، ويئسوا من كل شيء، وأيقنوا
أن لا ملجأ من الله إلا إليه، قذف الله في قلوبهم وألهمهم: أن توبوا
 فإني أريد أن أتوب عليكم ..

إنها لحظة.. سترى أنها هي؛ لحظة يقرع كيانك فيها قارع يقول:
"الآن! يا قلب نبضك، يا عين دموعك، يا لسان دعاءك .. الآن: الله
يريد أن يستجيب دعاءك" ..

إن هي إلا لحظة ..!

ستقول: ما دامت لحظة أيعقل أن قلبي لم يتعرّض طوال ما مضى
من بلائي لنفحات تلك اللحظة؟

نعم؛ إنه الشيطان عندما لمس منك تكاسلاً عن تبعات اللّجوء إلى
الله هاجم عليك ليجتالك عن طريق الله قائلاً: "أين تذهب؟
طريقك الذي تهُم بسلوكه طويلاً؛ هاهنا خصبٌ قريبٌ فارتع" ..

فَأَسْلَمْتُه لِجَامِ قَلْبِكَ فَنَقَلَهُ بَيْنَ مَرَاطِعِ الْجَذْبِ، وَلَوْ عَصَيْتَهُ فِي أَوَّلِ
الطَّرِيقِ لَوَصَلْتَ!

إِنَّهُ الشَّيْطَانُ؛ رَأَكَ تَقْرَعُ بَابَ الْفَرْجِ الْحَقِيقِيِّ، فَلَمَّا لَمَسْ مِنْكَ
مَلَلاً وَفُتُورًا قَالَ لَكَ: "هَا هُنَا مَخْرُجٌ سَهْلٌ فَاتَّبِعْنِي" .. فَقَادَكَ فِي
دِهْلِيزِ الْأَسْبَابِ فَأَضْعَتْ فِيهِ وَقْتَكَ وَجَهْدَكَ، وَكَلَّمَا هَمَمْتَ
بِالرَّجْوِعِ إِلَى بَابِ الْفَرْجِ الْحَقِيقِيِّ قَالَ: "رَوِيدًا.. أَبْصِرْ آخِرَ هَذَا
النَّفْقِ نُورًا" .. وَلَا نُورًا؛ إِنَّمَا يَصْدِكُ عَنِ السَّبِيلِ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ هَادِيَكَ،
وَلَوْ عَصَيْتَهُ أَوَّلَ الْأَمْرِ وَلَرِمْتَ قَرْعَ الْبَابِ لِفُتْحِ لَكَ ..

صَحِيحٌ أَنَّ الْلُّجُوءَ إِلَى اللَّهِ لَهُ تَبِعَاتٌ، وَصَحِيحٌ أَنَّ قَلْعَ
الْأَشْوَاكِ مِنَ الْقَلْبِ وَبَذْرَ الْبُذُورِ فِيهِ يَحْتَاجُ وَقْتًا وَجَهْدًا، لَكَنَّهُ أَقْلُ
بِكَثِيرٍ مِنَ الْوَقْتِ وَالْجَهْدِ الَّذِينَ سُتْنَفِقُهُمَا هَبَاءً فِي دِهْلِيزِ الْأَسْبَابِ
الْخَالِيةِ عَنِ اللَّهِ ..

وَمَعَ اللَّهِ سَتَجِدُ الْأَنْسَ وَالْطَّمَانِيَّةَ، وَمَعَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ سَتَجِدُ
الْخُوفُ وَالْخَذْلَانَ، ثُمَّ فِي الْأُولَى تَصُلُّ وَفِي الثَّانِيَةِ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تِيهًا ..!

فَلَمَّا إِذْنَ نَبَقَ نُعلِقَ قَلْوبَنَا بِالْأَسْبَابِ الْأَرْضِيَّةِ وَبِالْمَخْلوقِينَ
لِيُنْجُونَا مِنْ مَضَائِقِنَا؟ وَنَدْفَعُ تَكَالِيفَ ذَلِكَ مِنْ وَقْتٍ وَجْهِ وَتَمْرُقٍ
نَفْسٍ وَتَشَتَّتِ فِكْرٍ وَغُصَّةٍ وَهُمْ وَقَهْرٌ وَخَيْبَةٌ أَمْلٌ فِي الْمَخْلوقِينَ؟!

لَمَّا لَا نَتَعَظُ بِغَيْرِنَا؟

لَا بَأْسُ، إِنَّهُ الطَّبَعُ البَشَرِي؛ نُصْرٌ عَلَى التَّجْرِيَةِ بِأَنفُسِنَا، حَتَّى
إِذَا عَرَكْتُنَا وَذُقْنَا مَرَارَتِهَا أَصْبَحْنَا أَكْثَرَ حَزَمًا وَأَقْوَى عَزْمًا فِي صَدِّ
الشَّيْطَانِ إِنْ حَاوَلَ صَرْفَنَا عَنْ بَابِ الْفَرْجِ الْحَقِيقِيِّ وَقَلَّنَا لَهُ:
”غُرَّ غَيْرِي.. غُرَّ غَيْرِي..“

لَكِنَّ الْمُصِيبَةَ إِنْ لَمْ يَتَعَظَّ أَحَدُنَا بِتَجَارِبِ نَفْسِهِ وَأَصْرَّ عَلَى
خَوْضِ الدَّهْلِيزِ - دَهْلِيزُ الْأَسْبَابِ الْأَرْضِيَّةِ الْمُنْقَطِعَةِ عَنِ اللَّهِ،
دَهْلِيزُ التَّعْلُقِ بِالْمُخْلُوقِينِ - فِي كُلِّ بَلَاءٍ جَدِيدٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ
يُلْدُغَ مِنْ جُحْرِ مَرْتِينِ..!

فَسَلْ اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ لِحَظَةِ الْيَأسِ وَالرَّجَاءِ هَذِهِ؛ الْيَأسُ مِنِ
الْمُخْلُوقِينِ، وَالرَّجَاءُ فِي الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ..

إِنَّهَا لَحْظَةٌ .. لَكُنْ مَا أَعْزَّهَا مِنْ لَحْظَةٍ وَأَنْدَرَهَا!
إِنَّهَا لَحْظَةٌ .. إِنْ عَاشَهَا الْقَلْبُ اتَّفَضَ بِجَبَالِ الْهَمُومِ الْمُتَرَاكِمَةِ عَلَيْهِ
فَيَنْسِفُهَا رَبِّ نَسْفَاءِ..

إِنَّهَا لَحْظَةٌ .. لَكُنْهَا تَنَقْلُ الْقَلْبَ مِنْ وَادِي الْضِيَاعِ السَّحِيقِ لِيَتَعَلَّقَ
بِالْعَرْشِ..

إِنَّهَا لَحْظَةٌ .. تَنَقْلُكَ مِنْ حَضِيقِ الْفَشْلِ إِلَى قَمَةِ الْأَمْلِ، وَمِنْ
وَحْشَةِ الْيَأسِ إِلَى بَهْجَةِ الْأَنْسِ..

إِنَّهَا لَحْظَةٌ .. تَنَشِّلُكَ مِنْ الْمَخَاوِفِ الَّتِي تَنْهَاكَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَى
كُنْفِ اللَّهِ حِيثُ الْأَمَانِ..

إنها لحظة .. ظننت قبلها أنك فقدت كل شيء، لتكشف بعدها
أنك وجدت كل شيء ..

إنها لحظة .. وكأنها صيحة في مقبرة القلب أحياً مواته ..

إنها لحظة التعلق بالله، بالله لا غير، وهي هي والله لحظة
الفرح، فرج عن قلبك بإحيائه بعد موات، وفرح من كريك
بالطريقة التي يشاؤها الله ويرضيكم عنها ..

إنها لحظة كلحظات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. صحيح
أن حياة الأنبياء كلها تعلق بالله، لكن هذا التعلق كان يتمحص
ويصفو ويتجدد ويبلغ الذروة في لحظات فيأتي الفرج ..
كلحظة نوح إذ دعا ربه ﴿أَنِّي مَغلوبٌ فَأُنتَصِرٌ﴾ [القمر: 10] ..، فأنجاه
الله ومن معه في الفلك ..

كلحظة إبراهيم إذ قال: "حسبي الله ونعم الوكيل"؛ فجعل الله
النار برقاً وسلاماً عليه ..

كلحظة يونس إذ قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] ، فأنجاه الله من الغم وأنجاه من بطن
الحوت ..

كلحظة موسى إذ قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيِّدِيْنِ﴾ [الشعراء: 62]، فنجاه
الله وقومه من بحر أمامه وعدو وراءه ..

كلحظة أيوب إذ نادى رب: ﴿أَنِّي مَسَّنِي الْضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٨٣]

[الأنبياء: 83]، فكشف الله ما به من ضرٌّ وآتاه أهله ومثلهم معهم..

كلحظة يوسف إذ خلا قلبه من التعلق بالملك وبالخروج المشوب

من السجن فقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْ رَبِّكَ فَسَلِّمُ﴾ [يوسف: 50]، فأنجاه الله من السجن وآتاه ملكاً..

كلحظة يعقوب إذ قال لبنيه: ﴿وَلَا تَأْيُسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾

[يوسف: 87]، فرد الله عليه أبناءه وبصره ..

كلحظة محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال: ﴿لَا تَخَرُّنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾

[التوبة: 40]، فأنجاه الله من سيوف المشركين التي كانت فوق رأسه في صحراء لا قرابة فيها فيدفعون عن رسول الله ولا أتباع..

إنها لحظة اليأس من المخلوقين، فلا يبقى إلا الرجاء في الخالق، فيأتي الفرج سريعاً.. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أُسْتَيَّسَ الرُّسُلُ وَظَلَّوْا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءُهُمْ نَصْرًا فَنُنْجِيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

﴾ [يوسف: 110] ..

إن فرج الله قريب.. قريب جداً؛ لأنه لا يحول بيننا وبينه إلا هذه اللحظة، إنما نحن الذين نبتعد عنه بالدخول في دهاليز الأسباب الخالية عن الله والتنقل بين مراتعها، عندما نستثقل بضعف بصائرنا وقلة صبرنا - تبعات اللجوء إلى الله!

لذا فالصبر المطلوب في البلاء ليس صبر التَّجلُّد أمام الهم
فقط؛ بل الأهمُ منه الصبر في أداء تِبَعَات اللجوء إلى الله سبحانه ..
إنها لحظة اليقين الخالص بصدق الله، والثقة المطلقة
بقدرته على تنحيتنا مهما أمحَلتِ الأسباب، وبأنَّ من لزم قرع
الباب يُوشك أنْ يفتح له ..

لحظة اليقين بأنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن
ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ..
لحظة تنسِّنك من الدُّهليز لتضعيك أمام باب الفرج من جديد ..

لذا فإذا عشنا هذه اللحظة وأيقنا فعلنا بأنه ما لنا إلا الله،
فيَالْسَّعادَةِ وَهُنَائِنَا وَرَاحَةُ بَالِنَا! ولن تكون عبارة إشهار إفلاس؛
بل إعلان غَنَّى واكتفاء.. ولن نقولها بضعف وحزن وخوف، بل
سنقولها بثباتٍ واعتزازٍ واستبشرار؛ لأنَّ من لم يكن له إلا الله فالله
حسبه ونعم الوكيل، ونعم المولى ونعم النصير، وحينئذ عندما نضع
رأسنا لننام ونقول: "اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أُمْرِي
إِلَيْكَ .." ، سيرجُف قلبنا؛ لكنه هذه المرة رَجَفَانَ المحبة لله والأنس
به بعد طول غفلة عنه ..

لقد عشتُ شخصياً هذه اللحظة عندما غُيِّبتُ عن أهلي
ظلمًا.. كان يُورّقني أثناء تغيبي هذا خوفي على والديَّ أن يصيب
أحدَهما شُرُّ في غيابي، والمشكلة أنني كنت قد قَصَّرت معهما مِنْ

قبل في تكريس الوقت والجهد الكافيين في إسعادهما. كثيراً ما كان انشغالي بالدعوة وأمور نافعة، لكنَّ عدم الالتزام بالأولويات هو في حد ذاته خطأ ينبغي للإنسان أن يستغفر منه؛ فالله عز وجل فرض علينا برَّ الوالدين والتفسُّن في ذلك؛ **﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾** [الإسراء: 23]، فلا عذر لك في أن تنشغل عن بر والديك بأمور أخرى هي محبوبة لله عز وجل، فالشيطان قد يقنع منك بأن يلهيتك بال媿ضول عن الفاضل. لذلك في تغيببي كانت تراودني المخاوف ألاً أدرك أحد والدي أو كليهما.

تعلق قلبي بالأسباب الأرضية.. كان يبدو هناك حبالٌ كثيرة ممدودة ستنجني من بلائي، لكنَّ هذه الحال قطعت فجأة، والأسباب انهارت فجأة، فوجدت نفسي في لحظة من اليأس من كل شيء، كل شيء أرضي، كل شيء مادي.. وفي هذه اللحظة تعلق قلبي بالله عز وجل تعلقاً صحيحاً..

كتبت في أثناء تغيببي قصيدة تعبر عن هذه اللحظة..

ويختنقني الأسى ويضيق صدري
الأعبَّهم، أضمَّهم لـ حجري
من الأمراض قد بُليا بضرّ
تضاءل جسمه بخريف عمرٍ
تکاد تذوبُ من كمٍ وقهـرٍ

يُكدر صـفـوـنـي طـولـأـسـرـي
أـحـنـ إـلـىـ عـيـالـيـ أـنـأـرـاهـمـ
وليـأـبـوـانـ قدـبـلـغاـمـشـيـباـ
فـهـذـاـوـالـدـيـ مـضـنـيـ قـعـيدـ
وليـأـمـ تـكـابـدـ مـأـعـانـيـ

وأم عيالي التاءتْ لفَّةً دِي
يُسألهَا صغارِي عن غيابِي
وقد أصحتْ عند الناس رهناً
كأني متْ قبل بلوغِ حتفِي



وأحسِبُهُ خَلَامِنْ كُلْ مَرْ
ومفروشاً بِياقوتِ ودرْ
ولامتنَمِرْ أن جاءَ دورِي
ولستُ أخافُ أن أُبلِي بِفقرِ
على أبيِي إن فَجَاتْ بِعْقِرِ
ولستُ مُعاذِرًا أبداً بِعَذْرِ
فيالندِمَاتِي وَضَياعِ أمرِي!
وكُسْرًا في الفؤاد بغير جُبرِ
ولكني شُغِلتُ بنيلِ فخرِ
بل استَقْ بالتهم بكثيرِ زجرِ

وإني ماسلكتْ سَبيلِ ربي
ولم أحسِبُهُ محفوفاً بِوردِ
ولستُ بِجاهِلِ سُنَنَ الْبَلَادِ
ولستُ أخافُ من فُقدانِ جاهِ
ولكنِي أخافُ من المَنَايَا
وقد قَصَرْتُ عَنْهُمَا بِحَقِّ
فإنْ مَاتَتْ وَمَا اكتُنِفَ بِرِي
سيبقى ذِكْرُهُمْ جُرَحًا عميقًا
وكنتُ أباً لأولادِي مُحَبِّاً
فلم أغدق عليهم مِنْ حناني



لعلَّي أستَعِينُ لرفعِ جَوْرِ
فما آلَفَيْتُ من سِنِّ لظهري
ولكن ما استطاعوا فَكَّ أسرِي
فلم يرجع بما عني يُسرِّي

أقلَّب ناظري وأجيِلْ فكري
لجأتُ إلى العِباد لينقذوني
سوى إخوانَ قد جَهَدُوا لجهدي
حسِيرًا حَاسِئًا قد عَادَ بصرِي



وكاد اليأس يُسْحق كُلَّ بُشِّرٍ
 وأرجو عنكم جبراً الكسرى
 ذَخْرُتْ مثُل ضيقِي أَيْ ذُخْرٍ
 فِيشَفَعَ عَنْكُمْ فِي كَشْفِ ضُرٍّ
 ولَمْ أَقْبَلْ عَلَيْكُمْ سَوْيَ بُوزْرِي!
 وَأَنْوَيْتُ تَوْيَةً مَا عَشْتُ عُمْرِي
 فَجُذْتَ تَكْرُمًا وَنَشَرْتُ غَدْرِي
 وَصُغْتُ بُودْكُمْ نَثْرِي وَشَعْرِي
 فَعَاذَتْ مِنْ عَطَايَاكُمْ بِصَفْرٍ
 فِي إِنْ لَمْ أَلْذَ إِلَّا بَرَّ
 وَأَسْعِدْهُ بِيُسْرٍ بَعْدَ عُسْرٍ
 لَتَنْظُرَ كِيفَ إِحْسَانِي وَبِرِّي
 فَلَا يَخْفَاكَ إِعْلَانِي وَسَرِّي
 وَأَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَّفِي بِبَرَّ
 وَبِدَدْ لِي لَنَا بَطْلَوْعَ فَجَرِ

فَلَمَّا أَوْصَدُوا الْأَبْوَابَ دُونِي
 أَنْخَتْ بِبَابِكُمْ يَا رَبَّ رَحْلِي
 وَقَدْ فَتَّشَتْ فِي عَمْلِي لِعَلِيٍّ
 بِفَعْلِ خَالِصٍ تَرْضَاهُ رَبِّي
 فَلَمْ أَبْصِرْ سَوْيَ صَحَراءَ جَدِّبٍ
 وَإِنِّي نَادَمْ يَا رَبَّ حَقاً
 وَإِنِّي قَدْ وَعَدْتَكَ قَبْلَ هَذَا
 وَلَكِنِي أَحْبَبْكَ يَا إِلَهِي
 وَلَمْ أَمْدُدْ إِلَيْكَ يَدَا إِلَهِي
 ظَنَّنْتُ بِعَفْوِكُمْ يَا رَبَّ خَيْرَاً
 أَلَا فَارْحَمْ ضَعِيفَكَ يَا إِلَهِي
 وَأَرْجِعْنِي إِلَى أَبْوَيْ مَشِيبٍ
 أَجِبْنِي إِنْ عَلِمْتَ بِصَدْقِ قَوْلِي
 عَلَى الرَّحْمَنِ أَفْسَمْ كُلَّ جَهَدِي
 أَزِلْ عَنِي وَعَنِ أَخْرَوِيْ غَمَّاً



لقد عِشْتُ شَخْصِيًّا هَذِهِ الْلَّهْظَةِ، وَلَكِنْ مَا أَحْوَجَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِي
 أَنْ يَعِيشَهَا!

مَا أَحْوَجَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ الْيَوْمَ أَنْ يَقْطَعَ الْأَمْلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ أَنْ
 يَقْطَعَ الْأَمْلَ فِي الْمَخْلوقِينَ ..

مَا أَحْوَجَ هَذِهِ الشَّعُوبَ حِينَ تَرْفَعُ الشَّعَارَاتِ: "مَا لَنَا إِلَّا اللَّهُ" أَنْ
 تُدْرِكَ مَعْنَى هَذَا الشَّعَار؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ آمَنْتَ بِهِ إِيمَانًا حَقًّا وَقَامَتْ

بتبعاته وعلقت قلبها بالله فحسب، والله ليجعلنَّ الله لها فرجاً
ومخرجاً..

يا مسلمو .. يا مسلمو .. توكلوا على ربكم، علقو قلوبكم
برحمة ربكم، لا تعلقوا قلوبكم بالمخلوقين، لا تلتجأوا إلى غير ربكم
سبحانه تعالى، اصدقوا في اللجوء إلى الله، اطرحوا أنفسكم على
عتابه سبحانه ..

﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبٌ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلُكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ
فِي
مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: 160] ..

والله تعالى أعلم وأحكم ..
وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..

علاقة خاصة مع الله تعالى

عندما نمر بظرف صعب، أو نتمنى أمراً مستبعد الحصول، فإن هناك تفكيراً يجعل أملنا في تحقيق ما ندعوه به ضعيفاً، فندعو الله بفتور. هذا التفكير هو: (كثيرون غيري مروا بظرف مشابه، وأرائهم خيراً مني، وقد دعوا الله فلم يستجب لهم. فلا يتوقع أن يستجيب لي من باب أولى).

إخواني، دعني أشاركم إلى الجواب الذي أجبت به نفسي عن هذا السؤال، وووجدت له أثراً عظيمًا في علاقتي بالله تعالى، وأحسب أنه من الأسباب العظيمة لاستجابة الدعاء.

الجواب: (انظر إلى علاقتك بالله تعالى كعلاقة خاصة لا تتأثر بما يحصل مع الآخرين). قد يكون كثيرون غيرك وقعوا في مثل بلائقك بل أشد، ولم يُرفع عنهم، مع أنهم دعوا الله كثيراً، ومع أنهم أحسن منك عبادة وأكثر تقوى. لا علاقة لك أنت. ادعُ بيقينٍ وطمئن في كرم الله ولا تقارن بغيرك.

ما الأدلة على هذا؟

1. المقارنة بالآخرين (غيري أفضل ولم يُرفع بلاهه فمن باب أولى أنا) هي نوع من الحساب. والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].. فتفريح الكربات وتحقيق الأمنيات وكل أشكال الأرزاق من الخلاق لا تخضع لحساب.

قال ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير): (والحساب في قوله: (بغير حساب) بمعنى الحصر لأن الحساب يقتضي حصر الشيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص ، فالمعنى إن الله يرزق من يريده رزقه بما لا يعرف مقداره لأنه موكول إلى فضل الله).

- تأمل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ يَحْتَصُرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: 73]..

2. ويشهد لمعنى العلاقة الخاصة حديث رواه البخاري قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: (... ومثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثل رجل استعمل عملاً، فقال: من يَعْمَلُ لي إلى نصف النهار على قيراطٍ، فعملت اليهود، فقال: من يَعْمَلُ لي من نصف النهار إلى العصر، فعملت النصارى، ثم أتتم (المسلمون) تَعَمَّلُونَ من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين. قالوا (اليهود والنصارى - من مات على التوحيد منهم قبل بعثة النبي): (نحن أكثُر عملاً وأقل عطاءً!). قال: (هل ظلمتكم من حُكْمِ؟) قالوا: (لا)، قال: (فذاك فضلي أوتيه مَنْ شئْتُ).

محل الشاهد أن الله لا يظلم أحداً، بل يعطي كل محسن أكثر مما يستحق، لكنه قد يختار أناساً لفضل زائدٍ. لاحظ أن اسمه (فضل) وليس حقاً واجباً عليه سبحانه. فللمسلم أن يرجو أن يكون من الذين اختصهم الله تعالى بمزيد فضل.

أيها الكرام:

- من مقاصد الدين تطميع العبد في رحمة الله وتكوين رجاء عظيم في عطائه. والمقارنة المذكورة مع الاستجابة للأخرين تنافي هذا المقصود الجليل.
- وإذا كانت المقارنة المذكورة صحيحة، فعلى ماذا الدعاء إذن؟! سأنظر إلى غيري فأقارن فيكون الرد جاهزاً: (لم يتحقق لهم ما دعوا له فلن يتحقق لي) فتتعطل عبودية الدعاء في كثير من الحالات.
- انظر إلى بلاء الآخرين لتصبر كما يصبرون طالما أنك في بلائهما. لكن لا يصح أن ترهن التفريج عنك بالتفريج عنهم.
- لكن أتعلمون ماذا يحصل؟ أحياناً ننتظر الفرج على غيرنا لأننا نحس أن في ذلك "إثباتاً لرحمة الله" واستجابته للدعاء! مع أن أدلة الرحمة والاستجابة متتابعة لا يحدها حد لو لا النسيان وقلة التأمل.

- إن الذين تراهم خيراً منك قد لا يحقق الله لهم ما طلبوه من رفع البلاء مثلا لأنهم خير منك! فيدخلونهم دعاءهم محو سيئات ورفع درجات، لأنه سبحانه يعلم أن إيمانهم يتحمل، ويرزقهم سبحانه مع ذلك الرضا بقضائه ونعماما لقلوبهم، ويكون بذلك قد استجاب دعاءهم بما هو أدنى لهم مما طلبوه في الحقيقة، بينما قد يعلم سبحانه أن فيك ضعفاً (عودك طري) فيرحم ضعفك، ويجعل استجابة دعائك برفع البلاء.

لأجل ما سبق جميعاً، ادع الله بيقين، واجعل علاقتك به سبحانه خاصة، واطمع في أن تكون من أهل الحظوة عنده، كأنك تقول: (يا رب، أنا لا شأن لي بفلان وفلان ومن لم يُرفع بلاؤهم، أنت أرحم بهم وأعلم بما يصلحهم. ما أعلمه أنا هو وأنني عبد لربٍّ كريم لا حد لعطائه، ولا رب لي سواه فأرجوه، يرزق من يشاء بغير حساب، فاستجب يا كريم).

سوف تراهما بمنظر أكثر إبهاجاً بإذن الله!

كتبت هذه الخاطرة عام 1431 هجري، 2010 م

بدأت مهنتي الحالية في البعد عن عائلتي عندما كان عمر التوأمَتَين من أطفالِي (لين ولجين) خمسة أشهر.. ولا زالت لإداهما صورة عالقة بذهني؛ كنت أضعها على ظهرها على الأرض فتنقلب على بطئها ثم ترفع صدرها بيدها.. فإذا التقى عيناي بعيينيها ابتسامة الانتصار ورأسها يهتز لثقله على جسمها الصغير!

بقدر ما كان هذا المنظر مبهجاً في حينه فقد أصبح مؤلماً لي الآن وأنا في الغربة بعيد عن أولادي، أتمنى أن أرى الصغيرتين وهما تكبران يوماً بعد يوم، أن أرى تطور حركاتهما مرحلة مرحلة، تتقلبان ثم تحbowان ثم تمشيان وهما تمسكان بأطراف الأثاث ثم تمشيان مسافات قصيرة بخطوات سريعة مُنْتَشِيَّتين بتشجيع الحاضرين.. هذه المرحلة تمر الآن وأنا بعيد عنهم، فاقداً بذلك متعة لن تعود!

كان لهذا التفكير وخزْ مؤلم في حسي.. إلى أن قلت لنفسي:
(لا تحزن، سوف تراهما بمبلغ أكثر إبهاجاً بإذن الله)! **﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾** [القلم: 32] ..

قلت لنفسي: ماذا تستفيد إن عايشتَ تطورات حركات ابنتياء هاتين حتى كبرتا وقاربتا سن التكليف، ثم إذا بهما تفاجئنَك بالنفور من ارتداء الحجاب مثلاً؟! أي ذكرى جميلة تبقى حينئذ إن كانت ابنتاك من صلبك ترفضان شعائر دين تضحي أنت من أجله؟!

ارجُ الله تعالى الذي ابتليت في سبيله أن يعوضك لا في الآخرة فحسب، بل وفي الدنيا كذلك، بأن ترى ابنتيك هاتين تسعين نحوك يوماً وقد ارتديتا الحجاب من تلقاء نفسهما استعداداً للخروج معك في مشوار، وقد امتلأت عيناهما سروراً بما فعلتا، وارتسمت على وجهيهما البرئين ابتسامة رضا.. سيكون حينئذ منظرأجمل وأنقى وأبهى وأكثر إشاعة للبهجة في نفسك من أي منظر فقدته ببعدك عنهما «إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتَكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ» [الأنفال: 70]..

كثيراً ما نتحسر على نعم نفقدها أو مراحل من حياتنا لا نعيشها كما نتمنى لأننا نعتقد أنها لا تُعوض. أحسن الظن بربك يا أخي وارجه أن يعوضك بخير مما فرطت. وتذكر في الوقت ذاته أن هذه الدنيا أهون من أن تحرص على التمتع بكل مباحثاتها.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ولَقَابُ قوسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ - أَيْ : سُوطٌ - خَيْرُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))!..

فحسرتنا على فوات متعة دنيوي أكثر من فوات فرص
عظيمة للفوز بالجنة.. إن هذه الحسرة دلالة على غفلة منا يجب
عليها أن نستحي منها ونسعى إلى تداركها.

إن الحرص على التمتع بكل لحظة من لحظات الدنيا
متوقع لا منك أنت أيها المؤمن، بل ممن لا يؤمن بحياة آخراً، فهو
يتحسر على ما يفوت منها لأنها كل شيء في نظره.

فَعَلِقَ نَفْسُكَ يَا أَخِي بِنَعْمِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَوْسُّسْ لِكَ نَفْسَكَ
بِأَنَّ فِي الدُّنْيَا مَتَعًا تَفُوتُ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهَا تَعْوِيْضٌ مِّنْ جَنْسِهَا فِي
الْآخِرَةِ.. أَلَسْتَ إِنْ دَخَلْتَ الْجَنَّةَ كَانَ بِإِمْكَانِكَ أَنْ تَطْلُبَ إِعادَةَ مَا
فَاتَكَ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا؟ بَلِي ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: 34]..
لَكُنْ مَا أَظْنَكَ فَاعْلُمْ! فَإِنْ نَعِيمًا وَصَفَهُ الْعَظِيمُ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ
عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبه: 22].. سِيَشْغُلُكَ عَنْ مَتَاعٍ فَاتَّ فِي دُنْيَا
لَا تَزِنْ عَنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بِعُوضَةٍ!

فَلْتَطِبْ نَفْسُكَ بِالتَّضْحِيَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

ملاحظة: مررت السنوات ولبست أختهما سارة الحجاب من
نفسها وهي طفلة، ثم توفيت بخاتمة حسنة والحمد لله.

عجل أنت بالفرج على نفسي!

إن بداية الحل لمشكلتك والخروج من أزمتك أن تعرف أنها ما أصابتك إلا بذنب منك : «وَمَا أَصَبَّكُم مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» [الشوري: 30]، «وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فِيمَنْ تَفْسِيَ» [النساء: 79]، «أَوَلَمَا أَصَبَّتُكُمْ مُّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ» [آل عمران: 165].. لذا فإن الله تعالى يحب منك حينئذ أن تبادر بتصويب أوضاعك وبالعوده إليه تعالى: «فَأَخْذُنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ» [الأنعام: 42].

إن عامة الناس لا يتفاعلون مع البلاء كما يحب الله تعالى . لذا ترى أن القرآن يصف في مواضع كثيرة جداً سوء تفاعل الناس مع البلاء :

• فمنهم من لا يتفاعل ولا يستفيد: «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَطُ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام: 43]، «وَلَقَدْ أَخْذَنَاهُمْ بِالْعَدَابِ فَمَا أَسْتَكَلُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ» [المؤمنون: 76].. «أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ» [التوبة: 126].

ومنهم من ييأس ويقنط : ﴿لَا يَسْئُمُ الْإِنْسَنُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْسِنَ قَنُوتٌ﴾ [فصلت: 49] ، ﴿وَإِنْ تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: 36] ، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [آل عمران: 183] .

• بل ومنهم من يزداد كفراً! : ﴿وَإِنْ تُصِبُّهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَنَ كَفُورٌ﴾ [الشوري: 48] ، ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًا لَّظِلُولًا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: 51] .

عجبًا لأمرك أيها الإنسان ! إن هذا التركيز القرآني على ظاهرة سوء التفاعل يستدعي منا وقفة وتأملًا ..

إننا قد نمضي أوقاتنا ونحن تتألف من البلاء ونتمنى لو لم يحل بنا ونتصور سعادتنا لو لم يجر ما جرى، ونتلقّط الأنباء من هنا وهناك بأية بادرة انفراج، ونطرق الأبواب الأرضية ونبالغ في الأخذ بالأسباب المادية للتخلص من البلاء.. إلى حد يصبح فيه التفكير بالبلاء كابوس يقظة ومنامٍ ووسواسًا لا ينفك عن أذهاننا.. ولكن هذا كله لا يزيدنا إلا دوراناً في حلقة مفرغة، وستتولد لدينا مصيبة جديدة، هي أننا لم نستفد من البلاء ولم نتفاعل معه كما يجب الله تعالى بأن نصوب أوضاعنا ونعود إليه سبحانه.

قد يكون البلاء ظلماً وقع عليك، فتمضي الأوقات تغrieve من ظالمك .. لكن من الحكمة أن تدرك أن هذا ما سلط عليك إلا بذنب منك، فما هو إلا أداة لقدر الله تعالى.. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120] .. فينبغي لك، مع مدافعة هذا الظلم والسعى في تحصيل حقك بكل سبب شرعه الله، أن تسعى أيضاً في التخلص من ذنبك راجياً أن يكف الله الأذى عنك.

إن نزل بك بلاء فبادر فوراً بكتابة قائمة بأخطائك التي تحتاج إلى تصويب، وابدأ بالتخليص منها وقد وضعت نصب عينيك أن تفعل ذلك تعظيمًا لحق الله أولاً، ثم لينظر إليك تعالى نظرة رحمة ويرفع عنك البلاء. ولاحظ في تحديد أخطائك أن البلاء قد يكون من جنس المعصية، فمن قصد لذة لا يرضيها الله فقد يحرم الوجه **الحلال منها:**

• فإذا ابتليت مثلاً بمشاكل مع زوجتك ففك : لعلك أردت ترتيب حياتك بالتهاون في التعامل مع نساء من غير محارمك بممازحتهن أو الحديث معهن خارج حدود الحاجة وغض البصر، فحرمت متعة الوئام الزوجي النقية المباحة .

• إذا ابتليت بفقد شيء من مالك أو بقلة البركة فيه فتذكرة : هل تهاونت بإدخال مال مشبوه إلى مالك ؟ هل قصرت في صلة أمك بمال تبهجها وتوسع عليها به ؟

• إذا ابتليت بسجن فتذكرة : هل لديك والد مريض محبوس في جسمه لا يستطيع الحراك فما كانت تسري عنه بتنقيله في بيته وخارجها وما كنت تؤانسه بالحديث معه لتذهب عنه الوحشة ، فابتليت بوحشة كوحشته ؟ !

• إذا ابتليت بفقد وظيفتك فتذكرة : لعلك كنت لا تخشع في صلاتك ، بل تمضيها وأنت تفك في وظيفتك ومشاكلها وإرضاي المدير وأنت بين يدي الله تعالى !

• لعلك أيتها الزوجة المبتلاة بزوج لا يراعي حقوقك .. لعلك رأيته مقصراً في حق الله فلم تنصحيه ولم تعينيه على إرضاء ربه ، فلم يوفقه الله لأداء حقوقك عليه !

أيها المبتلى ! واجه الحقيقة وإن كانت مرة ! لابد من ذنب جر عليك البلاء ، فحدد وتخلاص منه بسرعة ، وبذلك تنجح أنت - بإذن الله - في قلب المحنـة في دنياك إلى منحة في دينك ، وينطبق عليك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (عجبًا لأمر المؤمن ، إن

أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن) .. ويرجى لك حينئذٍ أن يأتيك الفرج، لأنك بعودتك إلى الله قد اتقيته، والله تعالى يقول: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ» [الطلاق: 3, 2].

أما إن كنت بطيناً ضعيفاً في تصويب أوضاعك فتذكرة حينئذٍ أن المعلم إن رأى من التلميذ بطناً في تعلم الدرس فإنه قد يزيد عدد الحصص .. والله المثل الأعلى.

قد يأتيك الفرج بزوال ما آمرك وأهمك، وقد يأتيك الفرج بأن يبقى البلاء ولكن ترى معية الله لك فيه، وإناس قلبك بعد وحشة، وثباتاً بعد اهتزاز، ووجوهاً من الخير العظيم في دينك ودنياك خيراً لك من زوال البلاء.

لذا، تذكر وأنت تحدد أخطاءك وتبدأ بعلاجها أنك تريد التخلص منها مدى الحياة بغض النظر انفرج كريك أم لم ينفرج، وإلا لم تكن صادقاً في نية التوبة إلى الله تعالى. قد تكون قاطعاً لأنك وتبتلى بالفقر، فتتودد إلى الله تعالى وتصل أخاك من جديد.. ومع ذلك قد يبتليك الله باستمرار فقرك واستداده.. فهل

أنت حينئذ عائد للقطيعة لأدنى مشكلة جديدة بينكما؟! وهل في
هذا دلالة أن توبتك كانت صادقة خالصة لوجه الله تعالى؟

ويا عجباً من لا يغفل عن التوبة عند البلاء فحسب، بل يزداد
ارتکاباً للمحرمات لحل مشكلته! كتاجر يتعرض لخسارة فيفترض
قرضاً ربوياً لينعش تجارتة، ولعله يبرر ذلك في نفسه قائلاً : (لقد
اضطري ربي إلى اللجوء لهذا الطريق)!

فهذه أحوال الناس مع البلاء، منهم من يتخذ محطة تنقية
وانطلاقه جديدة في حياته، ومنهم من لا يتوب ولا يتذكر، ومنهم
من يستجير من الرمضاء بالنار. فاختر لنفسك .. **﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ**
مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 132]

مفاتيح التوفيق

أيها الأحبة ..

هناك مفهوم يحير عن تساؤلات كثيرة تخطر ببالنا:

* تصدر منا أحياناً أفعال نستغرب نحن صدورها منا ولا نعرف
كيف فعلناها! وقد تؤثر على حياتنا بشكل كبير ونندم عليها أشد
الندم. ما سبب صدور هذه الأفعال وكيف نحمي أنفسنا منها؟

* لماذا تمر بنا أوقات نحس فيها بفراغ القلب وهبوط
المعنىيات مع كل ما نحفظه من آيات وأحاديث وأقوال السلف
وأبيات الشعر والحكم والاستنباطات والمعاني الجميلة؟

* أصحاب البلايا الطويلة، ما الذي يصبرهم؟ نحس أننا لو كنا
مكان أحد هم فلن نصبر، كيف يمكن أن نحقق مثل صبرهم؟

* الله تعالى ينسب أي خير يحصل لنا إلى نفسه سبحانه في
المواطن كلها، هل هذا لأن الله تعالى يريد حفظ حقه فقط، أم أن هناك
فائدة تربوية عظيمة لنا في ذلك؟

* لماذا ذمت الشريعة مدحك للأخرين في وجوههم؟ ما
خطورة هذا المدح؟ ولماذا كان الصالحون الأبرار يخافون منه؟

جواب هذه الأسئلة كلها هو في كلمتين: التبرؤ والاستمداد..
ماذا تعنيان؟ هذا ما سنجيب عنه بإذن الله في هذه الصفحات ..

١. "خلي قدراتك تنفعك"!

لابن القيم كلام سأرويه مع بعض التحوير لتركيز الفكرة. قال رحمه الله ما معناه: (أجمع العارفون بالله على أن التوفيق هو في ألا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو في أن يكلك إلى نفسك. وقد يجتمع في العبد خذلان وتوفيق، فيقارن بينهما، ويدرك أن الذي يمسك سماء توفيقه وهدايته أن تقع على أرض خذلانه وضلاله هو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ويدرك العبد حينئذ حاجته إلى أن يقول في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أهدينا الصراط المستقيم ﴿٦﴾ [الفاتحة: 6,5].. ويعلم العبد حينئذ شدة حاجته إلى التوفيق في كل نفس وكل لحظة).

إذن إخواني، التوفيق هو في ألا يكلك الله إلى نفسك. ما معنى هذا الكلام؟ تصور الحياة واختباراتها كمجموعة من الحفر. أنت قد تُعجب بقدرات نفسك وذكائها لأنك استطعت أن تتجاوز بعض هذه الحفر. تحس أن لديك "قدرات ذاتية" تؤهلك لخوض أية تجربة بنجاح، وتقول:

- "أنا لست من النوع الذي يضعف أمام الفتن"

- "أنا لست من النوع الذي يخدع بسهولة"

ويعزز هذه النظرة مدح الناس لك:

- "فلان أسد"

- "فلان مدرسة في الصبر والثبات"

- "فلان ناجح في كل ما يفعل"

ومثل هذه العبارات من الثناء على جوانب مختلفة من شخصيتك. فتحس لا شعورياً بشيء من "الاستقلالية" عن رحمة الله وتوفيقه! ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَيَطْغَى﴾ [العلق: 6].

فيُعرِّضك الله لِحُفْرَةٍ، ويدعوك تعتمد على قدرات نفسك تلك (خليها تنفعك!), فتسقط في الحفرة سقوطاً مُرْوِعاً، لأنك وُكلت إلى نفسك. فتعلم أن لا نجاة ولا نجاح لك إلا بتعلقك بحبل الله تعالى، حبل رحمته وتوفيقه.

فتتبرأ من قدراتك، وتستمد التوفيق من الله. وهذا معنى التبرؤ والاستمداد. وتجنب تماماً قول: (أنا من النوع) ولست من النوع)..

بل تُدرك أننا كلنا بلا استثناء "من النوع" الذي لا يساوي قشرة بصلة إن وَكَلْنَا الله إلى أنفسنا! **فكِم** من معتزٌ بثباته أمام الشهوات وقع يوماً فيما لم يتصور أن يقع فيه مما كان يستقدر فاعليه! **وكم** من مغترٌ بذكائه انطلق عليه ما لا ينطلي على بسطاء الناس..

لذا، فإننا ندعوا صباح مساء بالدعاء الثابت عن نبينا صلى الله عليه وسلم: (يا حي يا قيوم برحمةك أستغفِرُك أصلح لي شأنِي كُلَّهُ ولا تُكلني إلى نفسي طرفة عينٍ).

قد يتساءل أحدهنا: (لا أستغفي عن توفيق الله طرفة عين؟) يعني بمقدار رمثة عين؟ نعم.. انظروا إخواني إلى أفعال قد لا تستغرق أكثر من رمثة عين، يكلنا الله فيها إلى أنفسنا فيصدر منها أفعال تترك جرحاً عميقاً سائِر حياتنا!

- قد تغضب فتقتل برصاصه أو طعنة سكين في طرفة عين، فيترك ذلك أثراً مدمراً على حياتك غير ما ينتظرك في آخرتك.
- زوج طلق زوجته طلقتين، وفي طرفة عين يطلقها الثالثة فيفترقان بلا عودة ويتشتت الأولاد.
- تنخدع لمحثال فتوقع له على ورقة أو تسلمه مالاً في طرفة عين فتفتقرب بعد عز.
- تُغضب أباك أو أخيك أو صديقك بكلمة جارحة تخرج في طرفة عين تنم عن سوء أخفيته في نفسك تجاههم، وما أصعب الترقيع بعد ذلك!
- تقول كلمة فيها استخفاف أو سوء أدب مع الله تعالى تحبط عملك في طرفة عين.

- تكون في موقفٍ مريضٍ في طرفة عين، يراك الناس فيها فتسقط من أعينهم ولا يعودون يتخدونك قدوة.
- سُرُّ تبوح به في طرفة عين تجر به مصيبة لغيرك وسلط عليهم بها ظالماً.
- تدعوا على ولدك في طرفة عين، مخالفًا بذلك نهي النبي عن الدعاء على الأبناء، فيقع به مكروره يلزمه في حياته. وغيرها الكثير.

تصرفات تستغرب أنت وقوعها منك، كأنها إشارات من الله تعالى: أن انظر ماذا يكون منك إن وُكلت إلى نفسك وفَتَرْ حسَك بضرورة حاجتك إلى رحمة ربك في كل طرفة عين.

تذكرة ذلك لتدعوا باضطرار ولهفة، لا دعاءً روتينياً: (فلا تِكْلِنِي إلى نفسي طرفة عين).

2. لماذا أشعر أحياناً بفراغ قلبي وهبوط معنوياً؟

أحدنا قد يحفظ القرآن والأحاديث المتعلقة بالصبر والرضا والإيجابية وقصص الصالحين وأبيات الشعر والحكم والاستنباطات والمعاني الجميلة.. ومع ذلك تأتي أوقات لا ينتفع

بأي منها! فيحس بضعف إيمانه، فراغ قلبه، هبوط معنوياته، قلة صبره!

وكانها تذكير من الله تعالى، أنه حتى هذه الآيات والأحاديث والمعاني لا تؤثر بنفسها تأثيراً ذاتياً، بل إن شاء الله نزع أثرها فيك وهو ت سماء صبرك وانشراحك على أرض ضعفك وخوفك. وإن شاء الله جعل لآية وقعاً جديداً في نفسك وأثراً عظيماً كأنك تسمعها لأول مرة مع أنك قرأتها قبل ذلك مئات أوآلاف المرات.

هي رجفات تُشعرك باقتراب هوي سمائك لتزداد لجوءاً.

وأرى أن ذلك مما يساعد في فهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه ليغاف على قلبي، وإنني لاستغفر لله في اليوم مئة مرّة) (مسلم). يُغاف بمعنى يتغشى القلب ما يتغشا به، وكأنها عوارض تعرض للنبي (رجفات) ليتذكر أن ثباته وطاقته ليست ذاتية، بل مظهر رحمة ومعية من الله تعالى فيتجدد تَبَصُّره بحاجته إلى ربه سبحانه في كل طرفة عين.

وكذلك صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وصفهم الله في غزوة الأحزاب بقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ أَبْتُلِي الْمُؤْمِنُونَ وَرُزِّلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: 11].. زلزلة تكشف لهم أنهم - وإن كانوا خيراً الناس وأقواهم وأثبتتهم - فنفوسهم ضعيفة إذا وكلوا إليها.

لذلك فلِمَنْ يتساءل: (ماذا أفعل عندما أضعف؟)..
الجواب: اعترف بضعفك وتبرأ من حولك وقوتك، واستغفر الله
عن كل لحظة أُعجبت فيها بنفسك وقلت فيها كقول قارون (إنما
أوتته على علم عندي)! واستمد العزم والقوة من ربك عزوجل.

٣. أصحاب البلايا الطويلة، ما الذي يصبرهم؟

لو أنك كنت مقبلاً على تأثيث بيته وقال لك رجل ثري:
(اشتر ما شئت ولا تسأل عن الثمن، أنا أسدد الحساب)
فستشتري بلا قلق..

كثيراً ما كنت أتساءل: (كيف يصبر المحبوس لسنوات
طويلةٍ مثلًا؟) وأخاف أن أُبتلى بمثل بلواهم، لأنني أنظر في نفسي
فلا أجده فيها ما يُصبرها كصبرهم.

ثم أدركتُ أن هؤلاء قوم منَ الله عليهم بلحظاتٍ عسيرة!
زلزلت أركانهم واستخرجت كل ما فيهم من طاقة فلم يجدوها
كافية، فتبذلوا من قوتهم واستمدوا العون من الله، أي أنهم عرفوا
المفتاح، وحينئذٍ فهم بهذا الذي يخوض أي غمار ومعه "شيك
مفتوح" من غني، ولله المثل الأعلى.

قلَّ قلقي يإدراك ذلك، لأن سقفي من قبلٍ كان نفسي، ونفسي محدودة وصبرها محدود. أما المدد من الله فلا حد له ولا عد، وإنما علينا أن نحسن الاستمداد: **«وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»** [النحل: 127]، (واستعن بالله ولا تعجز) (رواه مسلم).

انظر إلى ثبات الثابتين وتوفيق الموفقين على أنها مظاهر لرحمة الله وقدرته، ولا تشغل عنها بالإعجاب بشخصهم وبمدحهم، فإن مدحهم يغُرُّهم وينسيهم شيئاً فشيئاً حقيقة أن ما بهم هو محض توفيق من الله..

بدل أن تقول: "ما أصبر فلاناً" عود نفسك أن تقول: "ما أعظم رحمة الله إذ صبر فلاناً".

ولذا كان الصالحون الأبرار يخافون أن يُمدحوا في وجوههم، يخافون أن يبدوا كالمحقرين لنسبة الناس الفضل إلى ذواتهم، فيكال لهم الله إلى أنفسهم فيسقطون.

كان الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا زُكي قال: (اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون) (أخرجه البخاري في الأدب المفرد وقال الألباني إسناده صحيح).

٤. لماذا ينسب الله الفضل إلى نفسه؟ مفاتيح التوفيق

كل خير يحصل للعباد ينسب الله الفضل فيه دوماً إلى نفسه.

قوله سبحانه:

- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾

[النور: 21] ..

- ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ لَهُمَّ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكُمْ﴾

[النساء: 113]

- ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ لَكُنُتم مِنَ الْخَسِيرِينَ ٦٤﴾

[البقرة: 64]

فهل هذا التعريف للعباد بحقه سبحانه فحسب؟ بل أحسب أنه تعالى يريينا أيضاً بذلك، فالله تعالى غني عن العالمين، لكنه تعالى يعطينا مفاتيح التوفيق ويدلنا على ما ينفعنا لنستمد العون منه في كل وقت وحين ولا نغتر بأنفسنا وقدراتنا التي لو وكلنا إليها لضللنا وخسرنا وما زكت نفوسنا.

قال ابن القيم: (إذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه بالله ولله، لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه الله مؤتنها، وجعل له فرجاً ومخرجاً) (إعلام الموقعين).. انظر قوله: (وكان قيامه بالله)، أي معتمداً عليه وحده سبحانه.

في المقابل، قال ابن تيمية في بعض طوائف المبتدةة: (إذا نظرت إليهم بعين القدر، والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم، رحمتهم ورفقتَ عليهم: أتوا ذكاءً وما أتوا زكاءً (أي طهراً وبركةً)، وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً...).

إذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يقضى عليه اجتهداده

فتذكر:
تبرأ من حولك وقوتك،
 واستمد العون ممن لا حد لقوته سبحانه وتعالى.

لمن يُرْزق ولدًا من ذوي الاحتياجات الخاصة

رُزقت شقيقتي ولدًا مصاباً بمتلازمة داون، فتعاملت هي وعائلتها معه تعاملًا مليئًا بالدروس وال عبر.. ثم شاء الله أن يُتوفى الطفل عن ثلاثة سنين وثلاثة أشهر. وكنت بعيداً عنهم مقيد الحرية. فكتبت لشقيقتي وعائلتها الرسالة التالية، والتي أسأل الله أن ينفع بها كل من يُرْزق ولدًا من ذوي الاحتياجات الخاصة، بل وكل مبتلىً:

أختي الحبيبة نادية، أخي الحبيب إيمان، فادي، يزيد، براء، عمر..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأعظم الله أجركما في حبيبنا حموده. علمت بالخبر أمس، فجاشت في صدري معاً كثيرة أحبت أن أشاطركم إياها وفي ختامها سأُرُف لكم بشري بخصوص حموده.

إيمان ونادية، لقد تعلمت منكما درساً بليغاً مما لا يمكن أن أتعلم من الكتب: درساً في الرضا ومحبة قدر الله تعالى.

لا زلت أذكر يا نادية تلك اللحظة قبل ثلاثة سنوات وثلاثة شهور حين زرتك في المستشفى لأبلغك بالتدريج حقيقة أن

مولودك الجديد مصاب بمتلازمة داون.. لا زلت أذكر ثباتك وهدوءك وأنت متعبة من آثار العملية حين فهمت الأمر فقلت: "خير إن شاء الله" ثم غيرت الموضوع، وكان لسان حالك بعدها يقول : "يا رب إن كنت رضيته لي فقد رضيت به".

لما زلت أذكر إيمانك حين سألتني : "هل هذا يعتبر ابتلاء ولنا عليه أجر إن صبرنا؟" وكأنك كنت تقصد أن مولودك نعمة وإن كانت نعمة غير تامة فليس لك أن تتعامل مع الأمر بغير ذلك. فأجبتك: نعم، مرضه ابتلاء ولك على الصبر عليه أجر بإذن الله. فهزّت رأسك بصمت واتخذت أنت أيضا قرار الصبر.

لكن ما بدا منكما بعد ذلك أخي وأختي الحبيبين لم يكن صبراً عادياً، بل كان أكمل وأعلى.. كان رضاً وصبراً جميلاً، جميلاً بمعنى الكلمة.

كان من الممكن أن تصبرا على مضض وتقدما لحموده الحد الأدنى من الرعاية الواجبة وتتمميا في قلبكما أن "تنتهي المعاناة" بوفاته.. ولو كان هذا حالكما لما كنتما آثمين طالما لا جزع ولا اعتراض ولا تقصير في الرعاية الأساسية. لكنكما أحببتما مولودكم الجديد حباً حقيقياً.

حين علم الله منكما -فيما أحس بكمـ رضا بقضائه، أوجد في
قلبكما مودة ورحمة خاصة لهذا الطفل، مصداقاً لقوله تعالى:
﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ يُكَلِّ شَيْءٍ عَلَيْمٌ﴾ [التغابن: 11]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم:
(ومن يتصير يصبره الله) أحببتما حموده وتمنيتما أن يعيش.

نادية، لا زلت أذكر مشهد وأنت ترھشين لحركات حموده
وكانني أسمع صوتک وأنت تصھكين له من أعماق قلبك وتقولين:
(حمودي.. يا حیاتي!)

اشتريت له أجمل الملابس، حرصت على أن يكون (أكثر واحد شخص) في كل عيد، لم أره يوماً عبر السنوات الثلاثة إلا أنظر وأطيب رائحة من كل أولاد جيله، نشرت صوره بفخر على الفيسبوك، صممت له أجمل فيديو.. كل هذا مع أنه فعلياً حِست مع حموده، فلم تستطعي الخروج من المنزل للزيارات والدروس والرحلات لتعتني بحموده وتنفسه، وكثير من الأيام ترددت فيها بحموده بين الأطباء والمستشفيات، وتتابعين جلسات تعليم النطق وتحسين الحركة لحموده.

أصبح حموده هو حياتك، واستعنِ بالله ل تكون حياة جميلة.

إياد، لم تكن ترهش كثيراً لحركات الأطفال في هذا السن، لكنك حفلت بحموده أكثر من غيره.. أنفقت عليه بسخاء دون تردد: عملية القلب، ثم عملية البطارية، ثم نفقات العلاج والتأهيل.. كل هذا بطيب نفس.

وأنتما في ذلك كله تريдан لحموده أن يعيش، أن يكبر، أن يكون أقرب ما يمكن للإنسان السوي، وأن يبقى بيننا.

في حسابات الماديين، "ضاع" الكثير من الوقت والمال والجهد على حموده.. لكن في حسابات أهل الإيمان فإن الوقت والمال والعاطفة من نعم الله، وحمودهأمانة استرعاكم الله عليها، فأنتما سخرتما نعمة الله في رعايةأمانة الله عندكما، فلكلم بكل ما بذلتمن أجر يا ذن الله.

أولادكم نجحوا معكم حين تعاملوا بحفاوة واهتمام مع حموده، خصوصاً براء، الصديق المقرب من حبيب الشعب.

لما أحبتتما حموده بصدق أحبناه كلنا بصدق.. لما نظرتما إليه كإنسان مهم نظرنا إليه كلنا كذلك.. ثم لما حزنتما على فقده حزناً كلنا..

لأننا تعلمنا منكم درسًا عمليًّا كنتما لنا فيه جميًعا قدوة..
الدرس أكبر بكثير من حسن التعامل مع الأولاد من ذوي الاحتياجات الخاصة، إنه درس في تحويل الأقدار المؤلمة إلى مظهر رضاً وتسليم ومزرعة حسنات وهو درس يحتاجه كل مبتلى. لقد رحل حموده، لكن درسه سيبقى.

كان يمكن لعزاء حموده أن يكون فاترًا وأن تُرِيَ فيه مبسوطين مستريحين لانتهاء معاناته كما مع حموده لكن ليس هذا الذي كان.

كم فخرت بك يا نادية حين أخبرني مراد أنك بكيت عند وفاة حموده بشدة، ومع ذلك ما كان لك قولٌ إلا (الحمد لله، الحمد لله) تتصبرين بها.

فخرت بكما إيمان ونادية حين عرفت من أمي أن عزاء حموده استمر أيامًا، أكثر مما يُعزى بأي طفل، وأن عزاءه كان مشهودًا حضره خلق كثير..

كأنكمما فتحتما بالعزاء للناس مدرسة يتعلمون فيها عمليًّا الرضا واحترام الإنسان وتقدير نعمة الله تعالى.

أنا حزين على حموده، ومشتاق له "حبيب الشعب"، لكتني سعيد لكمًا جدًا، وأريد منكم أن تكونوا سعيدين لأنكم، فيما أحسبكم والله حسيبكم، نجحتما في اختبار حموده، فأرجو أنه بينما كانت الطبيبة تكتب شهادة وفاته، كانت الملائكة تسجل نجاحكم، بل تفوقكم، في صفحة اختبار حموده، ثم طويت هذه الصحيفة، وارتفعت إلى الله تعالى مع روح حموده.. وستنشر لكم هذه الصحيفة يوم القيمة.. أسأل الله أن يبيض بها وجوهكم ويُثقل موازينكم.

فأشكرا الله كثيراً على أن وفقكم في هذه التجربة وأسئلاته تعالى أن يتقبل منكم.

عزيزي إياد ونادية، خاتماً، إليكما البشري:

حموده نرجو أنكم ستلقونه في الجنة بإذن الله تعالى، فهو نفس بشرية، والأنفس تحيا يوم القيمة وتبقى مخلدة، وهو من أطفال المسلمين. لذا، نعم، نرجو أنكم ستلقونه في الجنة بإذن الله.. لكنه لن يكون فيها مصاباً بمتلازمة داون، بل سيكون كاملاً جميلاً بجمال رضاكم عن قضاء الله حين رزقهما إيهاد.. لذا، فاحرصا على العمل الصالح ونيل رضا الله تعالى ليُلتحقهما به برحمته.

أخيراً:

حموده.. رحل من الدنيا قبل أن يتعلم النطق، لكن لسان حاله يقول:

(بابا و ماما، جئت في حياتكم لمهمة:

أن أستخرج منكم عبادة الرضا وأرسم معكم قصة صبر جميل..
وأحب أن أقول لكم: أنكم نجحتما في الاختبار.. لذا، فإن مهمتي قد
انتهت، وسأرحل الآن..
لكننا سنلتقي بإذن الله.. في الجنة..
محبكم (حموده).

إياد ونادية، أنا فخور بكم، وأحبكم في الله على هذا الدرس
العظيم الذي أخجل من نفسي أمامه، وأسائل الله العظيم أن
يجمعنا وأحبابنا في الجنة مع حبيب الكل حموده.

محبكم: إياد

الفهرس

1	مقدمة
5	كيف تخلص من الخوف من المجهول؟
10	حين تعلم أن الله يريد بك خيراً!
20	لاتكن حبّشطياً!
24	ابن حبّك لله على أساس سليمة
30	الله يتودد إلينا بالبلاء
36	إن لم تستوقفك هذه الآيات فجدد محبتك!
43	الحمد لله على أنه لم يعطني ما تمنيت!
49	ستفرج في اللحظة المناسبة!
54	مذاقات لا توصف!
58	عند طبيب الأسنان
61	فلنحب الله لأنّه الودود
65	لن ينبع الصبر من حنایا نفسك
71	الراحمون يرحمهم الرحمن
79	لاتكتئب
86	الله لطيف بعباده
92	اشكر الذي سترعيوبك عنهم!
98	يائس.. مستوحش.. قلق.. خائف
104	بحب الله أتصبّر
107	لن تضيع وسط الزحام

111 علشاني

114 قل لن يصيّبنا إلا ما كتب الله لنا

116 ماذا لو؟؟

118 مقدمة عن النعم

119 حب بلا رجعة

123 ليس لك على الله في الدنيا حقوق

126 ليس ما ينقصك هو أهم شيء

131 تعايش مع الوضع الجديد

138 لماذا لا نستمتع بالنعم

141 لا أستحق

144 مقدمة عن تعليق القلب بالأخرة

145 ليست الدنيا دار جزاء

148 كن كالمحبوس!

150 كله محسوب!

151 عندما خيرت نفسي

154 إنها لحظة.. عندما يشتد اليأس فيعظم الرجاء

169 علاقة خاصة مع الله تعالى

173 سوف تراهما بمنظر أكثر إبهاجاً بإذن الله!

176 عجل أنت بالفرج على نفسك!

182 مفاتيح التوفيق

192 من يُرزق ولداً من ذوي الاحتياجات الخاصة

تعريف بالمؤلف

- الدكتور إيمان عبد الحافظ قنيري
- دكتور في علم الأدوية الجزيئي، حاصل على الدكتوراه من جامعة هيوستن الأمريكية.
- مارس بحث الدكتوراه في مركز تكساس الطبي.
- مشارك في براءتي اختراع في مجال التئام الجروح وعدد من الأبحاث العلاجية المنشورة في مجالات عدّة.
- أحد ثلات مراجعين أكاديميين لأكثر كتب علم الأدوية انتشاراً في العالم، وهو كتاب Lippincott Illustrated Reviews: Pharmacology في الطبعة الثامنة من الكتاب والصادرة عام 2018.

- يعمل حالياً في كلية الصيدلة بجامعة جرش في الأردن.
- تلقى العلوم الشرعية بجهد ذاتي عن عدد من العلماء.
- له محاضرات ومقالات في مجالات متعددة، مثل بناء الإيمان على أساس منهجية والرد على الشبهات ومناقشات علمية متخصصة في سلسلة بعنوان (رحلة اليقين)، وسلسلة في التأملات القرآنية.